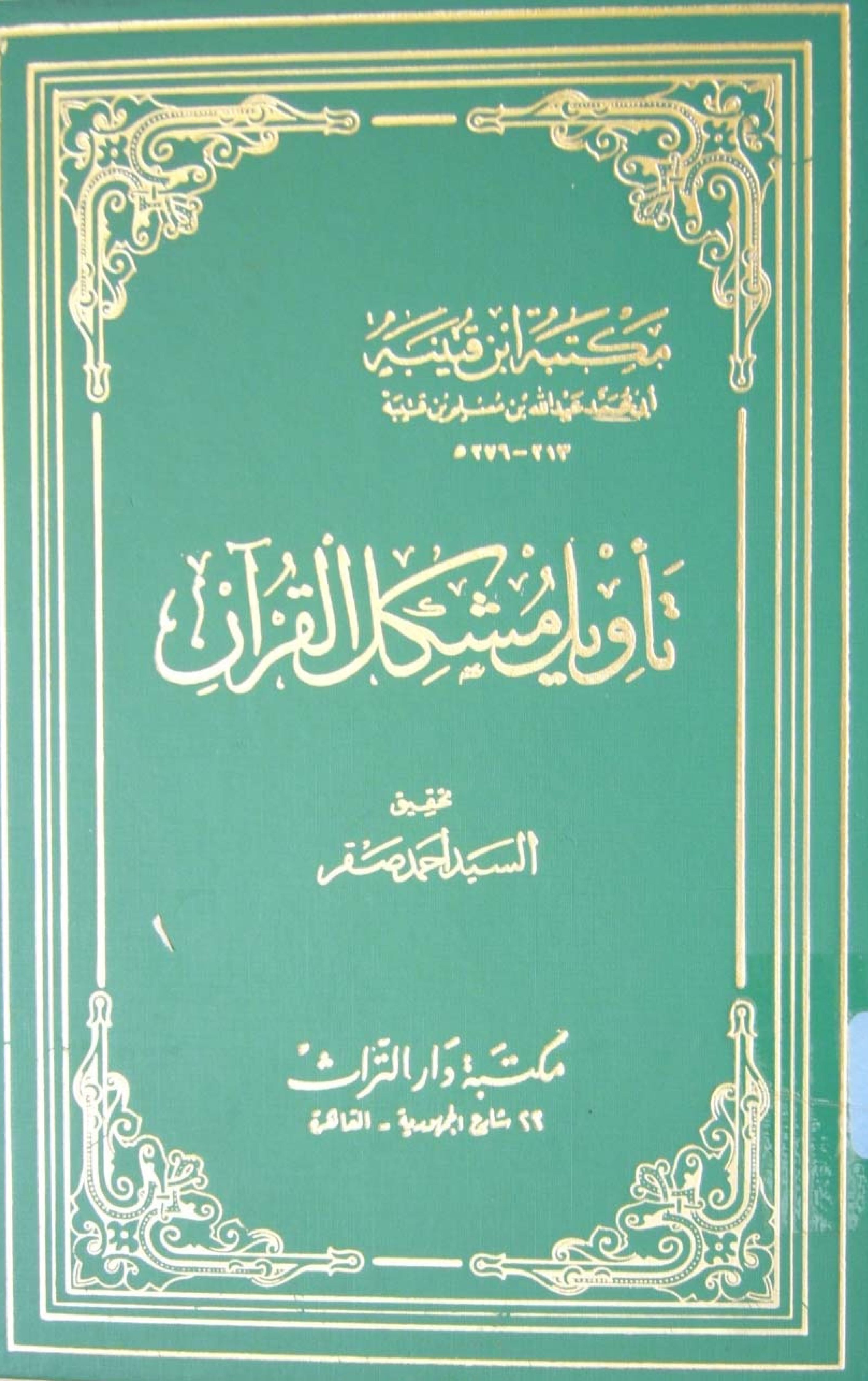

مكتبة ابن قتيبة
أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
٢١٣-٢٧٦هـ
تأويل مشكل القرآن
تحقيق
السيد أحمد صقر
مكتبة دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة



تأويل مشكل القرآن

شرحه ونشره

السيد أحمد صقر

الطبعة الثانية

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

دار التراث

ص.ب ١١٨٥ - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أكبرت ابن قتيبة منذ أن قرأت له فى فجر الشباب ، وصبت نفسى إلى كتبه ، فتطلبتها ، وحرصت على دراستها بعزمة قوية ، وهمة فتية ، ونفس مشوقة ، وحس جميع . وكنت كلما أمعنت فى قراءتها ، وأدمنت النظر فيها تجلت لى عظمتها ، وظهرت قيمتها ، وتبينت دقائقها ، وتهديت إلى مراميها ؛ واستبان لى من نضرة طلاوتها ، ورفافة مائيتها ؛ ورصانة أسلوبها ، وجمال عرضها ، وحسن تنسيقها وتبويبها - ما يزيدنى إعجاباً بها ، وإعظاماً لمؤلفها .

ثم تعاقبت الأعوام ، وتنوعت القراءات ، وتغيرت القيم ، وتبدلت الأنظار ؛ وظل إعجابى بابن قتيبة وكتبه مكيناً ركيناً ، بل ازداد تأصلا وتمكناً ؛ بما ازددت من معرفة به ، وبصر بكتبه .

وابن قتيبة خليق بالإعجاب ، جدير بالإعظام ؛ فقد أخلص نفسه وفكره وعقله لدينه ولغته ، وقضى حياته مجاهداً فى سبيل إعزازهما ، والتمكين لهما فى نفوس شباب الإسلام ، ودرء شبه أعداء الدين والعربية والعرب ، بما ألف من كتب ، ودرس من دروس . لا يبتغى بذلك طلب المثالة بين الناس ، أو المنالة منهم ، أو الجاه عندهم . بل ابتغى بما عمل وجه الله ، وتحقيق المثل المظيم

الذى رسمه لنفسه منذ أن عقل أمرها ؛ وهو الجهاد الدائب فى سبيل الدين واللغة ، حتى قضى نحبه رضى النفس ، مذكوراً بلسان الصدق فى الآخرين .

وقد أثابه الله على إخلاصه ، بما أفاض على كتبه من القبول ، وعطف نحوها من القلوب والعقول . فلست ترى أديباً أو متأدبًا قرأ من كتبه ، إلا وهو يحس نحوها بالمودة ، ونحوه بالتقدير .

وقد دفعنى إعجابى بابن قتيبة ، وعرفانى بقدر كتبه : أن أنشر ما بقى منها ، نشراً قويما ، يسهل سبل الانتفاع بها ، ويظهر القراء على ما فيها من روائع العلوم ، وبدائع الآداب والفنون .

والحق أن كتب ابن قتيبة دائرة معارف شاملة ، تمثل أرقى ما وصل إليه الفكر الإسلامى ، فى القرن الثالث الهجرى . ومن ثم فهى خليقة بالدرس ، جديرة بالنشر .

* * *

وابن قتيبة : من أسرة فارسية ، كانت تقطن مدينة « مرو » ولسنا نعرف عن نسبه أكثر من أنه : « عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزى » .

وقد ولد فى سنة ٢١٣ ، فى أواخر خلافة المأمون .

وقد اختلف المؤرخون له فى تعيين المدينة التى ولد بها ، فقال السمعانى ، والقفطى : إنه ولد ببغداد . وقال ابن النديم ، وابن الأنبارى ، وابن الأثير : إنه ولد بالكوفة .

وقد اتفقوا على أنه نشأ ببغداد التى كانت تموج حينئذ بأعلام العلماء فى كل فن ، وتهوى إليها أفئدة المثقفين والمتعلمين من كل أنحــاء الدولة الإسلامية .

وقد كان ابن قتيبة ـ منذ شبابه الباكر ـ ذا نفس طُلَعة ، تواقة إلى المعرفة ، دفعته إلى أن يتعلق من كل علم بسبب ، وأن يضرب فيه بسهم . وقد اقتضاه ذلك أن يغشى مجالس علماء الحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة والكلام والأدب والتاريخ ؛ فغشى من مجالسهم ماغشى ، وتثقف عنهم ماتثقف ؛ مما مكّن له من أسباب القوة ، وهيأ من وسائل التفوق والتبريز .

* * *

وقد تتلمذ ابن قتيبة لطائفة من أعلام عصره، وروى عن جمع من مشاهير دهره، وأخذ عن كثير من أعيانه وأماثله . نذكر منهم ما يلى :

١ — والده « مسلم بن قتيبة » . وقد أشار إلى ذلك فى عيون الأخبار ٣٠٧/٢ ، ١٤٢/١ حيث يقول : « حدثنى أبى ، عن أبى العتاهية » و « حدثنى أبى ، أحسبه عن الهيثم بن عدى » .

٢ — أحمد بن سعيد اللحيانى ، صاحب أبى عبيد : القاسم بن سلّام ، وقد حدثه اللحيانى بكتاب الأموال ، وكتاب غريب الحديث لأبى عبيد ، فى سنة ٢٣١ . وكان عمر ابن قتيبة ـ إذ ذاك ـ ثمانية عشر عاما .

٣ — أبو عبد الله : محمد بن سلّام الجمحى البصرى ، صاحب طبقات الشعراء (١٣٩ ـ ٢٣١) .

٤ ــ أبو يعقوب: إسحاق بن إبراهيم ، المعروف بابن راهويه (١٦١ ـ ٢٣٨) . وهو إمام جليل فى الفقه والحديث . صحب الشافعى وناظره ، وروى عنه البخارى ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد بن حنبل الذى قال عنه : « لا أعرف لإسحاق بالعراق نظيراً » .

٥ ــ حرملة بن يحيى التجيبى ، صاحب الشافعى (١٦٦ ـ ٢٤٣) .

٦ ـ القاضى يحيى بن أكثم ، المتوفى سنة ٢٤٢ . وقد أخذ ابن قتيبة عنه بمكة .

٧ ــ أبو عبد الله: الحسين بن الحسين بن حرب السلمى المروزى ، المتوفى سنة ٢٤٦ .

٨ ــ دعبل بن على الخزاعى الشاعر (١٤٨ ـ ٢٤٦) .

٩ ــ أبو عبد الله: محمد بن محمد بن مرزوق بن بكير بن البهلول الباهلى البصرى المتوفى سنة ٢٤٨ .

١٠ ــ أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادى ، تلميذ سيبويه ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ؛ المتوفى سنة ٢٤٩ .

١١ ــ أبو حاتم : سهل بن محمد السجستانى ، المتوفى سنة ٢٤٨ أو ٥٠ ، أو ٥٥ .

قال الأزهرى فى مقدمة التهذيب ص ١١ : « وكان أبو حاتم السجستانى أحد المتقدمين ، جالس الأصمعى ، وأبا زيد ، وأبا عبيدة . وله

مؤلفات حسان ، وكتاب فى قراءة القرآن جامع ... وقد جالسه شِمْر ، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة ؛ ووثقاه » .

١٢ — محمد بن زياد بن عبيد الله بن زياد بن الربيع الزيادى البصرى ، الملقب ببؤيؤ ، المتوفى سنة ٢٥٢ .

١٣ — أبو يعقوب : إسحاق بن إبراهيم بن محمد الصواف الباهلى البصرى ، المتوفى سنة ٢٥٣ .

١٤ — أبو عبدالله: محمد بن يحيى بن أبى حزم القُطَعِىُّ البصرى ، المتوفى سنة ٢٥٣ .

١٥ — أبو الخطاب : زياد بن يحيى بن زياد الحسّانى البصرى ، المتوفى سنة ٢٥٤ .

١٦ — شبابة بن سوار ، المتوفى سنة ٢٥٤ .

١٧ — أبو عثمان الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٤ . وقد أجاز ابن قتيبة ببعض كتبه ، كما صرح به ابن قتيبة فى عيون الأخبار ، حيث يقول ٣/١٩٩ و ٢١٦ و ٢٤٩ : « وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر : من كتبه ؛ قال ... » .

١٨ — أبو يعقوب: إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشّهيد البصرى ، المتوفى سنة ٢٥٧ .

١٩ — أبو طالب زيد بن أخزم الطائى البصرى ، الذى قتله الزنج فى سنة ٢٥٧ .

٢٠ — أبو الفضل: العباس بن الفرج الرياشي ، تلميذ الأصمعي ؛ الذي قتله الزنج بالبصرة وهو قائم يصلي في مسجده ، سنة ٢٥٧ .

٢١ — أبو سهل الصفّار: عبدة بن عبدالله الخزاعي الكوفي، نزيل البصرة ، المتوفى سنة ٢٥٨ .

٢٢ — عبد الرحمن بن بشر بن الحكم بن حبيب بن مهران العبدي ، المتوفى سنة ٢٦٠ .

٢٣ — أبو بكر: محمد بن خالد بن خداش بن عجلان المهلبي البصري الضرير .

٢٤ — أبو سعيد: أحمد بن خالد الضرير قال أبو منصور الأزهري عنه في مقدمة التهذيب ص ١١ : « وكان طاهر بن عبد الله استقدمه من بغداد ، فأقام بنيسابور ، وأملى بها كتباً في معاني الشعر والنوادر . وردّ على أبي عبيد حروفا كثيرة من كتاب غريب الحديث . وكان لقي ابن الأعرابي ، وأبا عمرو الشيباني ، وحفظ عن الأعراب نكتاً كثيرة . وقدم عليه القتيبي : فأخذ عنه » .

٢٥ — عبد الرحمن بن عبد الله بن قريب ابن أخي الأصمعي ، الذي عده الزبيدي في الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين .

* * *

أخذ ابن قتيبة عن هؤلاء الأعلام ، كما أخذ عن غيرهم ممن أعرب عن أسمائهم ، وممن أبهمها واكتفى بأن يقول : « حدثنا بعض مشايخنا » أو نحو

ذلك . كما أخذ عن الكتب المسموعة وغير المسموعة من كتب العرب والعجم . وهذه ينابيع ثقافته الغزيرة ، ومناهل معارفه الجمّة .

وليس يكفى أن يكون الإنسان جم المعرفة ، غزير الثقافة ، ليكون مؤلفاً ممتازاً بل لابد له — مع ذلك — من طبيعة مواتية ، وفكر مرتب ، وعقل مركز ، وذوق مصفى ، وذهن ناقد ، وبيان ساحر ، وحافز نفسى غلاب . وكل ذلك قد توافر لابن قتيبة ، وتهيأ له ؛ فمكّنه من أن يؤلف كتباً عظيمة : امتازت بالأصالة والجدّة ، والطرافة والدقة ، وحسن الترتيب والتنظيم . وكانت لوناً جديداً خلا من شوائب الاستطراد والتخليط ومساوى التأليف والتصنيف .

* * *

صنف ابن قتيبة مصنفات كثيرة ، بلغت عدتها — فيما يقول أبو العلاء المعرى — : خمسة وستين مصنفاً ، نذكر من أنبائها ، ماعلمناه ، فيما يلى :

(١) كتاب الوزراء :

لم يذكره أحد ممن ترجم له ، وقد ذكره ابن منظور فى لسان العرب ١٤٣/١٣ ، إذ يقول : « والعرب تسمى من يعمل جفون السيف خلّالا . وفى كتاب الوزراء لابن قتيبة فى ترجمة أبى سلمة : حفص بن سليمان الخلال فى الاختلاف فى نسبه ، فروى عن ابن الأعرابى أنه منسوب إلى خلل السيوف من ذلك » .

(٢) كتاب آلة الكتاب :

لم يذكر كذلك فى ترجمته ، وقد ذكره ابن السِّيد البطليوسى فى الاقتضاب حيث يقول ص ٨٧ : « ويقال للشحمة التى تحت برية القلم : الضرّة ، شبهت بضرّة الإبهام ، وهى اللحمة فى أصلها كذا قال ابن قتيبة فى « آلة الكتاب » وهو المعروف ، وخالف ذلك فى « أدب الكتاب » فقال : الألية : اللحمة التى فى أصل الإبهام ، والضرّة : اللحمة التى تقابلها » وفى ص ٨٨ : « وقال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة فى كتاب : آلة الكتاب ... » وفى ص ٥٩ : « وقد ذكر ابن قتيبة هذا الكلام فى آلة الكتاب وغير ذلك من كتبه » وكذلك ذكره فى ص ٨٤ .

(٣) كتاب صناعة الكتابة :

وهو غير معروف كسابقيه ، ولكن نقل منه الخزاعى فى كتابه « تخريج الدلالات السمعية » ص ٣٥٨ عند كلامه على كلمة ديوان وأن جمعها دواوين ودياوين : « وقال ابن قتيبة فى صناعة الكتابة : وإنما جمعوه بالياء على لفظه . قال : وداله بالكسر ولا تفتح » .

ومما يوثق صحة هذا النقل من صناعة الكتابة ، وأنه كتاب غير أدب الكتاب ـ أن الخزاعى ذكر فى الباب الرابع من كتابه ، وهو الذى عقده لذكر أسماء التواليف التى خرّج منها كتابه ـ فى كتب اللغة « أدب الكاتب لأبى محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة » ، وفى كتب الأدب : « عيون الأخبار لابن قتيبة والمعارف له . . . وصناعة الكتابة لأبى جعفر أحمد ابن محمد بن النحاس ، وصناعة الكتابة لابن قتيبة » .

(٤) كتاب الوحش :

ذكره ابن قتيبة فى « الأنواء » ص ٤١ حيث يقول : « قال ابن مضرّس الأسدى :

ويوم من الشمر كأن ظباءه كواكب مقصور عليها صقورها

يريد أنها قد كنست . وقد ذكرت هذا فى كتاب « الوحش » بأكثر من هذا الشرح » .

(٥) كتاب الصيام :

ذكره أيضاً فى الأنواء ص ١١٨ حيث يقول : « ويتعرف من المنازل بأن الهلال إذا طلع فى أول ليلة من شعبان فى « الشرطين » فإن كان شعبان تاماً طلع فى أول ليلة من شهر رمضان فى « الثريا » وإن كان شعبان ناقصاً طلع فى « البطين » وهذا أمر يضيق ويصعب على الناس ، ويكثر فيه التنازع والاختلاف ؛ فنسخه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : إذا غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين . وقد ذكرتُ مثل هذا فى الكتاب الذى ألفته فى الصيام » .

(٦) كتاب غريب الحديث :

وكان إلى منتصف القرن الرابع ، يعد ثانى اثنين ذهبا بإعجاب العلماء وتقديرهم فى هذا الفن .

قال أبو سليمان الخطابى فى مقدمة كتاب غريب الحديث : « فكان أول من سبق إليه ، ودل عليه أبو عبيد : القاسم بن سلام ؛ فإنه قد انتظم عامة ما يحتاج إلى تفسيره من مشاهير غريب الحديث ، فصار كتابه إماما لأهل

الحديث ، به يتذاكرون ، وإليه يتحاكمون . ثم انتهج نهجه أبو محمد: عبدالله ابن مسلم بن قتيبة ، فتتبع ما أغفله أبو عبيد من ذلك ، وألف فيه كتابا لم يأل أن يبلغ به شأو المبرز السابق » .

ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة فى كتاب أبى عبيد إلا مادعت إليه حاجة من زيادة شرح وبيان ، أو استدراك أو اعتراض . فجاء مثل كتاب أبى عبيد أو أكبر منه .

وقد قال ابن قتيبة فى مقـــدمته : « وكنت زمانًا أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به . ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما ترك نحواً مما ذكر ؛ فتتبعت ما أغفل ، وفسرته على نحو مما فسر . وأرجو ألا يكون بقى بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال » .

ثم قال الخطابى بعد أن ذكر جماعة من مصنفى الغريب وأثنى عليهم : « ثم إنه ليس لواحد من هذه الكتب التى ذكرناها ، أن يكون شىء منها على منهاج أبى عبيد فى بيان اللفظ ، وصحة المعنى ، وجودة الاستنباط ، وكثرة الفقه . ولا أن يكون من جنس كتاب ابن قتيبة فى إشباع التفسير ، وإيراد الحجة ، وذكر النظائر ، وتخليص المعانى » .

ولم يبق من غريب الحديث إلا الثلث الأول والثلث الأخير ، فى الخزانة الظاهرية بدمشق برقمى ٣٤، ٣٥ ـ لغة .

وقد ذكره ابن قتيبة فى كتاب أدب الكاتب ص ٧٠ وكتاب عيون

الأخبار ٢٤٤/٢ ، ٩/٤ وكتاب الأشربة ص ١٠٩ وكتاب تأويل مختلف الحـــديث ص ١٤ ، ٢١١ ، ٢٦٨ وكتاب المسائل ص ١٥ وكتاب الشعر والشعراء ٦٨٤/٢ وتأويل مشكل القرآن ص ٢٨ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ٢٠٥ .

وقد ألف الحسن بن عبد الله الأصبهانى ، المعروف بلغدة ، كتاباً فى نقده أسماه « الرد على ابن قتيبة فى غريب الحديث » .

(٧) إصلاح الغلط فى غريب الحديث لأبى عبيد .

استدرك ابن قتيبة فيه على أبى عبيد فى نيف وخمسين موضعاً ، وهذا الكتاب ـ فيما أرى ـ من أهم كتب ابن قتيبة وأعظمها أثراً فى تاريخه ، فقد تعاظم كثير من العلماء ـ فى عصره وبعد عصره ـ أن يعرض مثله بالنقد لأبى عبيد .

وترجع قيمته كذلك ، إلى أنه من بواكير كتب النقد العلمى .

وقد قدم له بمقدمة رائعة ، مليئة بالمعانى والأفكار ، وبدأها بدءاً ظريفا إذ يقول : « لعل ناظراً فى كتابنا هذا ينفر من عنوانه ، ويستوحش من ترجمته ، ويربأ بأبى عبيد ، رحمه الله ، عن الهفوة ، ويأبى له الزلة ، ويتحشم قَضْبَ العلماء ، وهتك أستارهم . ولا يعلم ما تقلدناه من إكمال ما ابتدأ : من تفسير غريب الحديث ، وتشييد ما أسس ، وأن ذاك هو الذى ألزمنا إصلاح الفساد ، وسد الخلل . على أنا لم نقل فى ذلك الغلط : إنه اشتمال على ضلالة ، أو زيغ عن سنة . وإنما هو فى رأى قضى به على معنى مستتر ، أو حرف غريب مشكل .

وقد يتعثر في الرأى جِـلّة أهل النظر والعلماء المبرزون ، والخائفون لله الخاشعون ؛ فهؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ـ وهم قادة الأنام ، ومعادن العلم ، وينابيع الحكمة ، وأولى البشر بكل فضيلة ، وأقربهم من التوفيق والعصمة ـ ليس منهم أحد قال برأيه فى الفقه إلا وفى قوله ما يأخذ به قوم ، وفيه ما يرغب عنه آخرون ... وكذلك التابعون ... والناس يختلفون فى الفقه ، ويرد بعضهم على بعض فى الحلال أنه حرام ، وفى الحرام أنه حلال وهذا طريق النجاة أو الهلكة ؛ لا كالغريب والنحو والمعانى التى ليس على الهافى فيها كبير جناح ؛ كالشافعى يرد على الثورى ، وأصحاب الرأى ، وعلى معلمه مالك بن أنس .

وأبو عبيد يختار من أقاويل السلف فى الفقه ، ومن قراءتهم ، ويرذل منها ، ويدل على عورات بعضها بالحجج البينة .

وعلماء اللغة أيضاً يختلفون ، وينبه بعضهم على زلل بعض . والفرّاء يرد على إمامه الكسائى ، وهشام يرد على الفراء ، والأصمعى يخطئ المفضل ... وهذا أكثر من أن يحاط به ، أو يوقف من ورائه .

ولا نعلم أن الله عز وجل أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط ، وأماناً من الخطأ ، فنستنكف له منها ، بل وصل عباده بالعجز ، وقرنهم بالحاجة ، ووصفهم بالضعف والعجلة ، فقال: ﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفا﴾ و﴿خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ﴾ ، ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ .

ولا نعلمه خص بالعلم قوماً دون قوم ، ولا وقفه على زمن دون زمن ، بل جعله مشتركاً مقسوماً بين عباده ، يفتح للآخر منه ما أغلقه عن الأول ، وينبه المقل منه على ما أغفل عنه المكثر ويحييه بمتأخر يتعقب قول متقدم ، وتال يعتبر على ماض .

وأوجب على كل من علم شيئاً من الحق أن يظهره وينشره ، وجعل ذلك زكاة العلم ، كما جعل الصدقة زكاة المال . وقد قيل : اتقوا زلة العالم ؛ وزلة العالم لاتعرف حتى تكشف ، وإن لم تعرف هلك بها المقلدون ؛ لأنهم يتلقونها من العالم بالقبول ، ولا يرجعون إلا بالإظهار لها ، وإقامة الدلائل عليها ، وإحضار البراهين .

وقد يظن من لايعلم من الناس ، ولا يضع الأمور مواضعها أن هذا اغتياب للعلماء ، وطعن على السلف ، وذكر للموتى ؛ وكان يقال : اعف عن ذى قبر . وليس ذاك كما ظنوا ؛ لأن الغيبة سب الناس بلئيم الأخلاق ، وذكرهم بالفواحش والشائنات . وهذا هو الأمر العظيم المشبه بأكل اللحوم الميتة . فأما هفوة فى حرف ، أو زلة فى معنى ، أو إغفال ، أو وهم أو نسيان — فمعاذ الله أن يكون هذا من ذلك الباب ، أو أن يكون له مشاكلا أو مقاربا ، أو يكون المنبه عليه آثما ؛ بل يكون مأجوراً عند الله ، مشكوراً عند عباده الصالحين ، الذين لايميل بهم هوى ، ولا تدخلهم عصبية . ولا يجمعهم على الباطل تحزب . ولا يلفتهم عن استبانة الحق حسد . وقد كنا زماناً نعتذر من الجهل . فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم ؛ وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة فصرنا نرضى بالسلامة . وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال . ولا ينكر مع تغير الزمان ؛ وفى الله خلف . وهو المستعان .

ونذكر الأحاديث التى خالفنا الشيخ أبا عبيد ، رحمه الله ، فى تفسيرها . على قلتها فى جنب صوابه . وشكرنا ما نفعنا الله به من علمه ؛ معتدين فى ذلك بأمرين ، أحدهما : ما أوجبه الله على من علم فى علمه . والآخر : ألا يقف

ناظر فى كتبنا على حرف خالفناه فيه ، فيقضى علينا بالغلط . ونحن من ذلك ، إن شاء الله سالمون . وما أولاك ـ رحمك الله ـ بتدبر ما نقول ، فإن كان حقا ، وكنت لله مريداً ـ أن تتلقاه بقلب سليم . وإن كان باطلا ، أو كان فيه شيء ذهب عنا ـ أن تردنا عنه بالاحتجاج والبرهان ، فإن ذلك أبلغ فى النصرة ، وأوجب للعذر ، وأشفى للقلوب » .

(٨) تفسير غريب القرآن :

وهو فى حقيقة أمره متمم لمشكل القرآن . وقد قال ابن قتيبة فى المشكل ص ٢٥ : « وأفردت للغريب كتاباً كيلا يطول هذا الكتاب » .

وقال فى مقدمة الغريب : « نفتتح كتابنا هـذا بذكر أسمائه الحسنى . وصفاته العلى ؛ فنخبر بتأويلهما واشتقاقهما . ونتبع ذلك ألفاظا كثر ترددها فى الكتاب لم نر بعض السور أولى بها من بعض . ثم نبتدئ فى تفسير غريب القرآن دون تأويل مشكله ؛ إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتاباً جامعاً كافياً بحمد الله . وغرضنا الذى امتثلناه فى كتابنا هذا أن نختصر ونكمل ، وأن نوضح ونجمل ؛ وألا نستشهد على اللفظ المبتذل ، ولا نكثر الدلالة على الحرف المستعمل ، وألا نحشو كتابنا بالنحو وبالحديث والأسانيد فإنا لو فعلنا ذلك فى نقل الحديث: لاحتجنا أن نأتى بتفسير السلف، رحمة الله عليهم ، ولو أتينا بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التى ألفها نقلة الحديث ... » .

ثم ذكر أنه لم يذكر اختلاف العلماء ، ولم يتم الدلائل على المختار منها . لأنه لو تكلف ذلك لأسهب فى القول ، وأطال الكتاب ، وقطع منه طمع المتحفظ ، وباعده من بغية المتأدب .

ثم ذكر أن كتابه هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين . لم يخرج فيه عن مذاهبهم . ولم يتكلف فى الحروف التى ذكرها إلا اختيار أولى الأقاويل فى اللغة ، وأشبهها بقصة الآية . وبين أنه نبذ منكر التأويل ، ومنحول التفسير . ثم سرد نماذج مختلفة من هذا المنكر والمنحول . وقال على إثره : « وبالله نستعين ، وإياه نسأل التوفيق للصواب » .

(٩) كتاب الأنواء :

ذكره ابن قتيبة فى كتاب المعانى ١/٣٧٥ ، ٧٣٨ .

وقال فى مقدمته :

« هذا كتاب أخبرت فيه بمذاهب العرب فى علم النجوم : مطالعها ومساقطها ، وصفاتها وصورها ، وأسماء منازل القمر منها وأنوائها ، وفرق ما بين يمانيها وشاميها ، والأزمنة وفصولها ، والأمطار وأوقاتها . واختلاف أسمائها فى الفصول ، وأوقات التَّبدّى لتتبع مساقط الغيث ، وارتياد الكلإ . وأوقات حضور المياه . وما أودعته العرب أسجاعها فى طلوع كل نجم : من الدلالات على الحوادث عند طلوعه . وعن الرياح وأفعالها . وتحديد مهابها . وأوقات بوارحها . وعن الفلك والقطب والمجرّة والبروج والنجوم . والخُنَّس . والشمس والقمر ودَرَارِىّ الكواكب ومشاهرها . والاهتداء بها . وعن السحاب ومخائله ، ماطره ومُخْلِفه ، والبروق : خُلَّبها وصادقها ؛ وأمارات خِصْب الزمان وجُدوبته . إلى غير ذلك .

وكان غرضي في جميع ما أتيت به، الاقتصار على ماتعرف العرب في ذلك ونستعمله ، دون مايدعيه المنسوبون إلى الفلسفة من الأعاجم ، ودون مايدعيه أصحاب الحساب ؛ فإني رأيت علم العرب هو : العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان ، النافع لنازل البر ، وراكب البحر ، وابن السبيل . يقول الله جل وعز : ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر﴾ فكم من قوم حاد بهم الليل عن سواء السبيل فى لجج البحار ، وفى المهامة والقفار ، حتى أشرفوا على الهلاك . ثم نجاهم الله بنجم أمره ، أو بريح استنشأوها .

وقال ابن أحمر وذكر فلاة :

يُهِلُّ بالفَرْقَدِ رُكْبانُها كما يُهِلُّ الراكبُ المُعْتَمِرُ(١)

وهؤلاء قوم ضلوا الطريق ، وتمادت بهم الحيرة ، حتى خشوا الهلكة، ثم لاح لهم الفرقد فعرفوا به سَمْتَ وجهتهم ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير كما يرفع المُعتمر صوته بالتلبية .

ويقال : إن أعلم العرب بالنجوم: كلب وبنو شيبان، وإن العلم من كلب فى ماوية ، ومن شيبان : فى مُرَّة .

صحبنى رجل من الأعراب فى فلاة ليلا ، فأقبلتُ أسأله عن محال قوم من العرب ومياههم ، وجعل يدلنى على كل محلة بنجم ، وعلى كل خباء بنجم ، فربما أشار إلى النجم وسمّاه ، وربما قال لى : تراه ، وربما قال لى؛ وَلِّ وجهك كذا — أى : اجعل مسيرك بنجم كذا — حتى تأتيهم . فرأيتُ النجوم تقودهم إلى موضع حاجاتهم ، كما تقود مَهَايع الطريق سالك العمارات .

ولحاجتهم إلى التقلب فى البلاد ، والتصرف إلى المعاش ، وعلمهم أن لاتقلب ولا تصرّف فى الفلوات إلا بالنجوم — عُنُوا بمعرفة مناظرها .

ولحاجتهم إلى الانتقال عن محاضرهم إلى المياه ، وعلمهم أن لا نُقلة إلا لوقتٍ صحيح يوثق فيه بالغيث والكلا — عُنُوا بمطالعها ومساقطها .

هذا مع الحاجة إلى معرفة وقت الطَّرْق ، ووقت النِّتاج ، ووقت الفِصَال ووقت غَوْر مياه الأرض وزيادتها ، وتأبير النخل ؛ ووقت يَنْع الثمر ، ووقت جِداده ، ووقت الحصاد ، ووقت وباء السنة فى الناس، وفى الإبل، وغيرها من النَّعَم ؛ بالطلوع والغروب .

وقد يحتاج نازل المدن ، وسالك العمارات — وإن كان مستغنياً فى بعض الأحوال عن هذا الشأن — إلى معرفته ، مُسْتَظهِراً به النوائب فى الأسفار والنكبات ، ومعرفة مايعرفون : من علامات الخصب والجدْب ، وعلامات السحاب الماطر ، والسحاب المُخْلِف ، والبروق الصادقة والكاذبة ، والرِّياح اللاقِحة والحائلة : ومعرفة المغارب والمشارق ، والزَّوال ، والفَجْرَين ، والشَّفَقَيْن ؛ ومعرفة سَمْت القِبلة .

وقد كان هذا الشأن عزيزاً ، والمَعْنيُّون به قليلا ؛ والأدب غَضٌّ ، والزمان زمان — فكيف به اليوم : مع دُثُور العلم ، وموت الخواطر ، وإغراض الناس ؟! .

وقد قيَّدت بهذا الكتاب أطرافاً : من هذا الفن ؛ أدركتُ بعضها بالتوقيف ، وبعضها بالاعتبار ؛ واستخرجت بعضها من الأشعار ؛ ونبهت على

إغفال من أغفل من الشعراء ، وخالَفَ ماعليه أكثرهم ، لشبهة دخلت عليه .

وما أبرَأ إليك بعدُ من العثرَة والزّلة ، وما أستغنى منك — إن وقفت على شيء — من التنبيه والدلالة ؛ ولا أستنكف من الرجوع إلى الصواب عن الغلط ، فإن هذا الفن لطيف خفيّ ، وابن آدم إلى العجز والضعف والعجلة ﴿ وَفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم ﴾ . ونحن نسأل الله أن ينفعنا وإياك بالعلم ، ويعرّفنا قدره ؛ ويجعل شغلنا بالعمل المقرّب منه ، ويؤتينا بفضله أفضل ما آتاه من أمّله بخير نيّة ، وأرشد هدًى إليه ، إنه الواسع الكريم » .

وقد ذكر ابن قتيبة فى كتاب « الأنواء » من كتبه : كتاب « تأويل مشكل القرآن » فقد ذكر فى ص ٩ رأيا فى قوله تعالى : ﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ ثم قال : « وهو قول أبى عبيدة ، وهذا قول قد بينت فساده فى كتابى المؤلف فى تأويل مشكل القرآن » .

ولم ينص فى المشكل على أن هذا الرأى لأبى عبيدة ، بل نسبه « لبعض أهل اللغة » وقد قلت فى التعليق عليه : « يلوح لى أن ابن قتيبة يقصد بقوله هذا أبا عبيدة . . . راجع تأويل مشكل القرآن ص ١٥٣ — ١٥٧ .

وذكر أيضاً كتاب الميسر والقداح فى ص ١٠ ؛ فإنه أنشد قول الراعى :

إذا لم يكن رِسْلٌ يعود عليهمُ   ضربنا لهم بالشَّوْحَطِ المتقوِّبِ

ثم قال : « والشوحط المتقوب : يعنى القداح التى يضرب بها . وقد بينت هذا فى كتاب الميسر » . وما أشار إليه موجود فى كتاب الميسر والقداح ص ٥٢ .

وذكر أيضاً كتاب «الوحش» فى ص ٤١ ؛ وهو من الكتب المفردة .

(١٠) كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها :

ذكره ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء ١/٨ ، ٥٠ ، وفى عيون الأخبار ٢/١٨٥ ؛ ونقل منه نتفة فى وصف الشعر . وقد طبع قسم : مما وجد منه ، فى كتاب رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد على .

(١١) كتاب الميسر والقداح :

ذكره ابن قتيبة فى كتاب إصلاح الغلط (لوحة ٢٦ — ب) ؛ حيث يقول : « وقد ذكرت هذا فى كتاب الميسر بأكثر من هذا الشرح ، ولم يحتمل هذا الكتاب أن نتجاوز فيه مقدار ماذكرنا . فإذا آثرت أن تعرف أمر الميسر وكيفيته ، ويضح لك ماذكرته فى هذا الحديث أكثر من هذا الوضوح — : نظرت فى ذلك الكتاب إن شاء الله » .

وقد طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٢ هـ .

(١٢) كتاب المعارف :

ذكره ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار . وقد طبع مرارا ؛ وأول من طبعه المستشرق « وستنفل » سنة ١٨٥٠ م .

وقد جاء فى مقدمة كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة ص ١ : عن أحمد بن عبيدالله بن أحمد قال: «أملى علينا أبو بكر : محمد بن يحيى الصولى، رحمه الله ، هذا الكتاب ؛ وكان سبب إملائه إياه علينا : أن رجلا ممن كان يحضر

مجلسه ، يحضر مجلس أبى بكر : محمد بن القاسم الأنبارى ، رحمه الله ؛ فرأى يوما فى يده كتابا ، فأخذه يقرأه ، فوجد مجلداً من كتاب الزاهر ؛ فقال : هذا منقول من كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة ؛ كما نقل أبو محمد بن قتيبة كتابه فى المعارف ، من كتاب المحبر لابن حبيب ... » . وقد طبع كتاب المحبر فى الهند سنة ١٣٦١ ﻫ . بتصحيح الدكتورة إيلزه ليحتن شتيتر إحدى العالمات بأمريكا . وقد قرأت كتاب المحبر ، وقارنت بينه وبين المعارف ؛ فتبينت تجنى الصولى ، وإسرافه فى قوله : إن المعارف منقول منه . وتفصيل القول فى ذلك يقع فى موضعه : من مقدمة طبعة المعارف إن شاء الله . وأظن أن المسعودى يقصد كتاب المعارف ، فى كلامه على تاريخ أبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ ﻫ ؛ حيث يقول : « إن ابن قتيبة أخذ ماذكره ، وجعله عن نفسه » .

وقد ذكر ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء ، فى كتاب المعارف ص ٢٣٨ ﻫ

(١٣) كتاب عيون الأخبار :

وفيه عشرة كتب :

كتاب السلطان
« الحرب
« السؤدد
« الطبائع والأخلاق
« العلم
كتاب الزهد
« الإخوان
« الحوائج
« الطعام
« النساء

وقد طبعته دار الكتب المصرية فى سنة ١٣٤٣هـ، طبعة يشيع فيها التصحيف والتحريف. ولعل مرد ذلك إلى أنه من أوائل الكتب التى تولى القسم الأدبى تحقيقها. وقد أشار ابن قتيبة فى مقدمته إلى كتاب الأشربة، كما أشار إليه فى ١/٣٢٥، وإلى كتاب أبيات المعانى ١/١٥٨ وكتاب الشعر والشعراء ٢/١٨٥، ٣/٢٤٧، وكتاب العرب ٢/١٨٥، وكتاب غريب الحديث ٢/٢٤٤، ٤/٩.

وقال أبو بكر بن دريد، وقد تذاكر مع جماعة من جلسائه متنزهات الدنيا، وسمّى كل منهم أنزه مكان رآه: «هذه متنزهات العيون، فأين أنتم عن متنزهات القلوب؟ فقالوا له: وما هى؟ فقال: عيون الأخبار لِلْقُتَبِىِّ، والزّهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبى طاهر».

(١٤) كتاب أدب الكاتب:

ويحتوى على أربعة كتب:

كتاب المعرفة	كتاب تقويم اللسان
« تقويم اليد	« الأبنية

وقد طبع منه اثنا عشر بابا فى ليبزج سنة ١٨٧٧م، ثم طبع كاملا فى ليدن سنة ١٩٠١م، وطبع بعد ذلك بمصر مراراً.

وقد شرح خطبته أبو الكرم المبارك بن الفاخر المتوفى سنة ٥٠٠ هـ.

وأبو القاسم: عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى المتوفى سنة ٣٥٠ ﻫ . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٥٨٦ ﻫ .

وشرح أبياته أحمد بن محمد الخارزنجى المتوفى سنة ٣٤٨ .

وقد شرحه أبو محمد: عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٤٢١ ﻫ وسمى شرحه : الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب . وقد جعله ثلاثة أجزاء ، قصر الأول منها على شرح الخطبة ، والثانى على التنبيه على الأغلاط ، والثالث على شرح الأبيات . وقد طبع ببيروت سنة ١٩٠١ م.

وجاء فى بغية الوعاة ـ فى ترجمة أحمد بن محمد بن أحمد بن المرسى أبى العباس ابن بلال المتوفى قريباً من سنة ستين وأربعمائة ـ : « ونسب إليه ابن خلصة النحوى شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب ، وذكر : أن ابن السيد البطليوسى أغار عليه وانتحله » . وقد شرحه أيضاً أبو منصور : موهوب بن أحمد الجواليقى المتوفى سنة ٥٣٩ ﻫ ؛ وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٠ ﻫ ، وقدم له المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

كما شرحه سليمان بن محمد الزهراوى تلميذ أبى القاسم الزجاجى .

وشرحه أبو إبراهيم: إسحاق بن إبراهيم الفارابى: صاحب ديوان الأدب .

وشرحه أبو جعفر: أحمد بن داود بن يوسف الجذامى المتوفى سنة ٥٩٧ﻫ .

وشرحه أبو الحزم : الحسن بن محمد بن يحيى بن عليم البطليوسى المتوفى سنة ٥٧٦ ﻫ .

وقد ألف أبو الحسن : محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان — : كتابا فى نقده ، أسماه : « غلط أدب الكاتب » .

وقال ابن خلدون فى مقدمته ص ٥٥٣ أثناء كلامه على علم الأدب : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم : أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وماسوى هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها ! » .

وقال ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ٢/٢٤٧ : « والناس يقولون : إن أكثر أهل العلم يقولون : إن أدب الكاتب خطبة بلا كتاب ، و « إصلاح المنطق » كتاب بلا خطبة . وهذا فيه نوع تعصب عليه ، فإن أدب الكاتب قد حوى من كل شىء ، وهو مُفَنَّن ، وما أظن حَمَلهم على هذا القول إلا أن الخطبة طويلة ، والإصلاح بغير خطبة .. » .

(١٥) كتاب الشعر والشعراء :

طبع هذا الكتاب للمرة الأولى فى ليدن سنة ١٨٧٥ م ؛ ثم أعيد طبعه فيها سنة ١٩٠٢ م بتحقيق المستشرق الكبير دى غويه : وطبع بعد ذلك فى مصر وفى غيرها ، وكان آخرها طبعة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر التى طبعها فى مطبعة عيسى الحلبى سنة ١٣٦٤ ، ١٣٦٦ ؛ وهى فى جزءين عرضت لها بالنقد فى مجلة الكتاب فى عدد يونية ١٩٤٦ صفحة ٢٩٥ - ٣٠٩ وعدد ديسمبر ١٩٥٠ م ، صفحة ٩٢٨ — ٩٣٤ .

وقد ذكر ابن قتيبة فى هذا الكتاب — من كتبه — : كتاب الأشربة ١/١٣٨ ، ٢/٨٢٧ ، وكتاب العرب ١/٨ ، ٥٠ ، وكتاب غريب الحديث ٣/٦٨٤ .

(١٦) كتاب المسائل والأجوبة ، فى الحديث واللغة :

طبعه الأستاذ حسام الدين القدسى . فى مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ .

ويبدو أن هذه الطبعة غير كاملة ؛ لأنى وجدت ابن السيد قد نقل منه نصاً فى ص ٧ ٢ ليس له أثر فيها .

وقد أشار ابن قتيبة فى هذا الكتاب ، إلى غريب الحديث ص ١٥ .

(١٧) كتاب الاختلاف فى اللفظ ، والرد على الجهمية والمشبهة :

وقد طبعه القدسى فى مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى .

(١٨) كتاب تأويل مشكل الحديث :

رواه عنه حفيده عبد الواحد بن أحمد كما فى فهرس ابن خير ١٩٩ ـ ٢٠٠

طبع بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ، باسم : « تأويل مختلف الحديث » .

وهو كتاب فريد ، تحدث فيه عن موقف علماء الكلام من أهل الحديث ، وما تحدثوا عنهم به : من شتى التهم والمثالب ؛ وعرض بالنقد لما ذهب إليه النظام : من اعتراضه على أبى بكر وعمر وعلى ، وطعنه على ابن مسعود وحذيفة وأبى هريرة . ونقد كذلك ثمامة بن الأشرس ، ومحمد بن الجهم البرمكى

والجاحظ ، وأبا الهذيل العلاف ، وغيرهم ؛ وعرض لأهل الرأى ، وأبان عن منابذتهم للكتاب والسنة . وأدار الجزء الأكبر من كتابه على الأحاديث : التى ادعِى عليها التناقض والاختلاف ومخالفة القرآن ؛ والأحاديث : التى زعموا أن النظر يدفعها ، وحجة العقل تدمغها ؛ فكشف عن معانيها التى صرفهم عن فقهها: الهوى الجموح ، ولفتهم عن وجه الحق فيها : إلحاد الضمائر والقلوب والعقول .

(١٩) كتاب الأشربة[1] :

طبعه المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٢٦٦ هـ ، بتحقيق الأستاذ محمد كرد على ؛ وهى طبعة رديئة ، مليئة بالتصحيف والتحريف ؛ وقد نقدت بعض ما فيها فى سلسلة مقالات نشرتها بمجلة الرسالة سنه ١٩٤٩ م فى العدد ٨٢٩ وما بعده .

(٢٠) كتاب المعانى الكبير :

قال ابن النديم : « إنه يحتوى على اثنى عشر كتابا ، منها :

كتاب الفرس ، ستة وأربعون بابا .

» الإبل ، ستة عشر بابا .

» الحرب ، عشرة أبواب .

» القدور ، عشرون بابا .

» الديار ، عشرة أبواب .

» الرياح ، أحد وثلاثون بابا .

---

(١) راجع ابن خير ٢٦١

كتاب السباع والوحوش ، سبعة عشر بابا .

« الهوام ، أربعة عشر بابا .

« الأيمان والدواهى ، سبعة أبواب .

« النساء والغزل ، باب واحد .

« الشيب والكبر ، ثمانية أبواب .

« تصحيف العلماء ، باب واحد » .

وقد طبع ماوجد من هذا الكتاب فى الهند سنة ١٣٦٨ هـ ، فى ثلاثة مجلدات بلغ عدد صفحاتها : ١٢٧٠ صفحة من القطع الكبير ، غير فهارسها .

وقد أشار ابن قتيبة إلى هذا الكتاب ، فى عيون الأخبار ١/١٥٨ ؛ حيث يقول : « وقد فسرت هذا الشعر فى كتابى المؤلف فى أبيات المعانى ، فى خلق الفرس » ؛ وما أشار إليه موجود فى المعانى ١/١١٠ — ١١٢ .

وقد أشار المعانى إلى كتاب الأنواء ص ٣٧٥ ، ٧٣٨ .

والكتاب الثانى عشر من كتاب المعانى ـ وهو : « تصحيف العلماء » ـ من الأقسام الضائعة من الكتاب ؛ وقد ألف ابن المرزبان عبد الله بن جعفر ابن درستويه (٢٥٨ — ٣٤٧) ، فى نقده ، كتابا جعل عنوانه : « الرد على ابن قتيبة فى تصحيف العلماء » .

(٢١) كتاب عيون الشعر :

قال ابن النديم : « يحتوى على عشرة كتب منها :

كتاب المراتب

« القلائد

« المحاسن

« المشاهد

« الشواهد

« الجواهر

« المراكب » .

(٢٢) كتاب التقفية :

قال ابن النديم : « هذا كتاب رأيت منه ثلاثة أجزاء ، نحو ستمائة ورقة ، بخط برك ، وكانت تنقص ـ على التقريب ـ جزءين ، وسألت عن هذا الكتاب جماعة : من أهل الخط ؛ فزعموا : أنه موجود ؛ وهو أكبر من كتاب البندنيجى ، وأحسن من كتبه » .

(٢٣) كتاب العلم :

قال ابن النديم : « نحو خمسين ورقة » .

(٢٤) كتاب جامع النحو الكبير .

(٢٥) « جامع النحو الصغير .

(٢٦) « الحكاية والمحكى .

(٢٧) « الخيل .

(٢٨) كتاب إعراب القرآن .

(٢٩) « ديون الكتاب .

(٣٠) « فرائد الدر .

(٣١) « خلق الإنسان .

(٣٢) « القراءات .

وقد أشار إليه فى تأويل مشكل القرآن ص ٤٥ .

(٣٣) كتاب دلائل النبوة ، ويسميه القاضى عياض فى المدارك : « أعلام النبوة » .

وقد ذكره السخاوى فى الإعلان بالتوبيخ ٩١ ، ورواه عنه قاسم بن أصبغ وابنه أحمد كما فى فهرس ابن خير ص ١٥١

(٣٤) كتاب جامع الفقه .

(٣٥) « حكم الأمثال .

(٣٦) « آداب العشرة .

(٣٧) « التفسير ، ذكره القاضى عياض .

(٣٨) « معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، ذكره أبو الطيب الحلبى فى مراتب النحويين .

(٣٩) « تأويل الرؤيا ، ذكره ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار .

(٤٠) « استماع الغناء بالألحان .

(٤١) « الرد على القائل بخلق القرآن .

(٤٢) « آداب القراءة .

(٤٣) « الجوابات الحاضرة .

(٤٤) « تأويل مشكل القرآن .

أشار إليه ابن قتيبة فى أدب الكاتب ص ١٩ وفى تأويل مختلف الحديث ص ٨٣ ، ٣١٤ وفى كتاب « الأنواء » ص ٩ وفى كثير من صفحات تفسير غريب القرآن .

وقد ذكر فيه من كتبه : كتاب « القراءات » ص ٤٥ وكتاب تفسير غريب الحديث ص ٢٨ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ٢٠٥ ، وكتاب تفسير غريب القرآن ص ٢٥ .

(٤٥) كتاب الجراثيم .

وتوجد منه نسخة خطية عتيقة ، فى المكتبة الظاهرية (٥٩ لغة) ، تقع فى ٤٤٠ صفحة ؛ كتب عليها : « كتاب الجراثيم ، مستوعب لأسماء أصول العالم والبهائم والوحش والطير والسباع والهوام ، وكل نسمة تعرف ؛ ومتصرفاتهم ، وأفعالهم ؛ وأسماء أنواع الأرض والشجر والنبات ؛ وغير ذلك ؛ والوحوش ، وقوافى الشعر . تأليف : أبى محمد : عبد الله بن مسلم » . ومجلد كتاب الجراثيم هذا يحتوى على عدة كتب لغوية ، نشر منها الأب موريس بويجس كتاب : « النعم والبهائم والوحش والسباع والطير ، وحشرات الأرض » ؛ سنة ١٩٠٨ م ونسبه لأبى عبيد : القاسم بن سلام .

كما نشر الدكتور « أوغست هفنر » كتاب : « النخل والكرم » فى مجلة المشرق ، ونسبه للأصمعى . ثم أعاد نشره « الأب لويس شيخو » فى

المجموعة اللغوية التى سماها : « البلغة فى شذور اللغة » ولكنه لم يرتض نسبته للأصمعى ، ونسبه لأبى عبيد ؛ وقال : « ومما يحملنا إلى نسبته لأبى عبيد : أن الشروح للمفردات توافق ماجاء فى لسان العرب والمخصص ، منسوباً لأبى عبيد أكثر منها للأصمعى ؛ ومن المحتمل أيضا : أن يكون الكتاب لأبى حاتم السجستانى تلميذ الأصمعى ... » .

وقد نشر « شيخو » أيضاً — من كتاب الجراثيم — كتاب :« الرحل والمنزل » ؛ وشك فى نسبته لابن قتيبة ؛ لأنه لم يذكره أحد ضمن مصنفاته ؛ ومال إلى أنه لأبى عبيد؛ لأن معظم مضامين هذا الكتاب قد رويت فى اللسان والمخصص منسوبة له .

وقد نشر أيضاً منه تلك المجموعة فصلا عنوانه: « أبواب اللبن والشراب»؛ ولم يحاول نسبته إلى أحد غير ابن قتيبة .

ولسنا نستطيع أن نتبين : هل هذه الكتب المنشورة من كتاب الجراثيم لابن قتيبة ؟ أم هى ملحقة به ؟ : لأنا لم نحصل بعد على صورة منه ؛ كما لا نستطيع كذلك : أن ندفع الكتاب عن ابن قتيبة ؛ لأن المترجمين له لم يذكروه فى كتبه ؛ ولأن بعض شروح الكتب التى يحتويها توافق ما نسب فى كتب اللغة لأبى عبيد ، أو للأصمعى ، أو لغيرهما ؛ فمن طبيعة التأليف اللغوى النقلُ ولا سيما عن أعلامها السابقين ؛ ولم يزعم المترجمون ولا زعم لهم زاعم : أن الكتب التى يذكرونها لمن يترجمون لهم ، هى على سبيل الحصر والاستقراء .

(٤٦) كتاب معانى القرآن :

وقد قرأه عليه قاسم بن أصبغ ، المتوفى سنة ٣٤٠ هـ . وذكره القاضى عياض فى ترجمة ابنه أحمد .

* * *

هذه أسماء كتب ابن قتيبة بعد إسقاط ما كرره المترجمون له : فقد ذكروا له كتباً كثيرة ، وهى فى حقيقة أمرها أجزاء من كتب ؛ ككتاب : « الفرس » الذى ذكره القفطى، وهو من «معانى الشعر » ؛ وكتاب : « تقويم اللسان » الذى أشار إليه صاحب كشف الظنون ، فإنه من «أدب الكاتب» ؛ وكتاب : « المراتب والمناقب » الذى ذكره ابن النديم وهو من « عيون الشعر » ؛ وكتاب : « الأبنية » الذى ذكره القاضى عياض ، فإنه من « أدب الكاتب » .

وعدة الكتب التى ذكرناها هنا : سبعة وأربعون كتابا ، منها أربعة كتب تشتمل على اثنين وخمسين كتابا ، كما سبق . فأين بقية كتبه التى قال أبو العلاء المعرى : إنها خمسة وستون كتاباً ؟ .

هل هى كتب أخرى مستقلة ضل عن التاريخ ذكرها ؟ أم هى أجزاء من تلك الكتب المشتملة على كتب عدّها العادون كتباً مفردة ؟ . علم ذلك عند علام الغيوب .

ولست أميل إلى تصديق صاحب « التحديث بمناقب أهل الحديث » ، فى قوله الذى انفرد به : إن كتب ابن قتيبة زهاء ثلاثمائة كتاب . فلو كان

ذلك كذلك : لاهتم ابن النديم ببيانها ، كما صنع فى تراجم المؤلفين المكثرين: من أمثال أبى عبيدة ، والمدائنى ، وهشام الكلبى .

* * *

وقد نسب إلى ابن قتيبة كتاب مشهور شهرة بطلان نسبته إليه ؛ وهو كتاب : « الإمامة والسياسة » .

وهل يسيغ هذه النسبة عقل؟مع عرفانه: بأن مؤلف «الإمامة والسياسة» ذكر : أنه استمد معارفه من أناس حضروا فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ . وأن موسى بن نصير غزا مدينة مراكش فى زمن الرشيد؛ مع أن ابن قتيبة ولد فى سنة ٢١٣ ، ومات فى سنة ٢٧٦؛ ولم تبن مدينة مراكش إلا فى سنة ٤٥٤ هـ: فى عهد يوسف بن تاشفين ، سلطان المرابطين . ؟! .

إن هذا وحده يدفع نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة ، فضلا عن قرائن وأدلة أخرى كلها يثبت تزوير هذه النسبة .

* * *

وقد نسبت إليه أيضاً : « وصية إلى ولده » ؛ نشرها الدكتور إسحاق موسى الحسينى فى مجلة الجامعة الأمريكية ببيروت ، عن مجموعة خطية محفوظة بمكتبة تلك الجامعة ، كتبت فى الإسكندرية سنة ٤٨٦ وقد أقبلت على قراءة هذه الوصية : فرحاً مشوقا ؛ وما إن فرغت من قراءتها حتى كان الشك فى نسبتها إليه قد قرّ قراره فى نفسى ؛ لأن معانيها سطحية مفككة،

وأفكارها ساذجة مختلجة ؛ وأسلوبها يباين أسلوب ابن قتيبة المشرق الرصين وإن شئت فاقرأ فيها قول كاتبها : « يا بنى، إذا لقيت أحـــداً من إخوانى وأصحابى : فأقرئهم منى السلام ؛ وأخبرهم عنى بالله عزّ وجلّ ، قال : ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه، كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ ، ﴿ فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ . واعلم : أن الله عز وجل بنى داراً لمن لا دار له ، يجمع فيها من لا فعل له ؟ » .

« يا بنى قد صحبت لك طوائف من الناس ، وبلوت أخبارهم ؛ فما رأيت طائفة أجلّ وأعظم قدراً من أهل الفقر إلى الله عز وجل ، والفاقة والمسكنة إلى الله عز وجل ؛ فالزمهم وجالسهم واخدمهم بنفسك ، وتواضع لهم بجسمك ؛ وتقرب إلى الله عز وجل بالنظر إليهم ، وواسهم بما قدرت عليه ، وتغافل عن زلاتهم ، وأحسن ظنك بهم ؛ فإن الله عز وجل يؤيدهم إذا ماتوا إن شاء ! » .

« وعليك بمجالسة الفقراء أهل الفقر والمسكنة إلى الله ، واخدمهم بنفسك ، وتحبّب إلى الله عز وجل فى المحبة لهم ، وابذل لهم مالك وجاهك ، وتبرك بدعائهم ، ودم على صحبتهم ؛ فإن لهم يوم القيامة دولة ، وعند الله تعالى شفاعة » .

« يا بنى إنى راغب إلى الله فى مسألتى له : أن يجعلك خلفاً من بعدى ، تخلفنى فى علمى ومذهبى . »

« يا بنى طب عن الأمة نفساً ، وارض بالرحمن أنساً ، فما أحد يعدل فى الخبرة فلساً » .

وما أظن إلا أن هذه الفقرات ستثير فى نفسك الشك : إن كنت لكتب ابن قتيبة من القارئين ؛ كما أنى لا أعلم لابن قتيبة مذهباً صوفياً ، يتمنى أن يخلفه ابنه فيه . ولو كان لتحدث عنه الصوفية وغيرهم . على أن هذه « الوصية » قطعة من كتاب لم يصل إلينا كاملا ؛ وآية ذلك ما جاء فى صفحة ٧ : « واعلم يابنى : أن أصول البدع كلها من خمسة : من القدريّة ، والمرجئة ، والجهمية ، والرافضة ، والخوارج . ومنها تتشعب الفرق كلّها حتى تنتهى إلى ثلاث وسبعين فرقة ؛ للذى جاء به الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة : اثنتان وسبعون منهاهالكة ، والواحدة منها ناجية : الذى أنا عليه وأصحابى . والجهمية : الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ؛ ويؤمنون بالقدر ؛ ويقولون : إن الله عز وجل حالّ فى كلّ شىء ، كالشىء فى الشىء ، وكالروح فى الجسد . والخوارج : هم الذين يقولون بتقديم الشيخين : أبى بكر وعمر ؛ ويرون إمامتهما ، ويتبرءون من عثمان وعلى . وقد بينت وسميت أئمتهم فى هذا الكتاب ! » .

وليس فى « الوصية » بيان عن الخوارج ، ولا تسمية لأئمتهم ، وكان خليقاً بناشرها أن يشير إلى ذلك .

ولو كانت تلك الوصية لابن قتيبة حقاً . لما كانت إلا لابنه أحمد ؛ ولو

كانت له : لحدَّث بها فيا حدث عن أبيه ، ولأكثر من التحديث بها لأسباب شتى : من حوافز النفس ، ودواعى الاجتماع .

* * *

وكان من شأن ابن قتيبة : أن يخلو إلى نفسه فى بيته ، فيؤلف كتبه ، ويجوّد تأليفها ؛ ثم يخرجها للناس ويقرئها لمن شاء : من طلاب علمه وأدبه .

وقد تتلمذ له عدد كبير ، نذكر منهم ما يلى :

(١) ابنه أحمد ، قال القاضى عياض فى ترجمته له فى كتاب « المدارك » :

« أبو جعفر بن قتيبة ؛ هو أحمد بن عبد الله بن مسلم الدينورى ، البغدادى النشأة . كان مالكىّ المذهب ، من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه ؛ وكان يحفظها كما يحفظ القران ، ويردّ فيها من حفظه النقطة والشكلة : وما معه نسخة ! كان أبوه أبو محمد حفّظها إياه فى اللوح ! وعدتها أحد وعشرون مصنفاً : كتاب المشكل ، معانى القرآن ، غريب القرآن ، غريب الحديث ، عيون الأخبار ، مختلف الحديث ، التفسير ، الفقه ، المعارف ، أعلام النبوّة ، العرب والعجم ، الأنواء ، طبقات الشعراء ، معانى الشعر ، إصلاح الغلط ، أدب الكتاب ، الأبنية ، النحو ، المسائل ، القراءات .

سمع منه خلق عظيم من الجلة — بالعراق ومصر — كأحمد بن ولّاد ، وأبى جعفر النّحاس ، وأبى عاصم المظفّر بن أحمد ، وأبى على القالى ؛ وغيرهم : من جلّة أهل الأدب والرواية .

وكان مجلسه : لعيون الناس ، وأعيان النبهاء . ولم يكن عنده حديث إلا ما فى كتب أبيه. ولى قضاء مصرسنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. ورَدَها: وقد لبس السَّوادَ ؛ وحكم فى جامعها ، واستخلف الفقيه أبا الذكر المالكى على فَرْض النساء . وكان فى خلقه حدّة . وتوفى فى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين بمصر ، بعد صَرْفه . وكانت ولايته القضاء بمصر : ثلاثة أشهر .

وله ابن اسمه : عبد الواحد ، روى عن أبيه ؛ سمع منه أبو عبيد الله الوشاء المصرى ».

وقال الخطيب البغدادى ـ فى ترجمة عبد الواحد ١١/٨ : « يكنى عبدُ الواحد : أبا أحمد . ذكر : أنه ولد ببغداد فى سنة سبعين ومائتين ، وانتقل إلى مصر فسكنها ، وروى بها ـ عن أبيه عن جدّه ـ كتبه . سمع منه أبو الفتح بن مسرور البَلْخِى ، وقال : كان ثقة » .

ومن الكتب التى قرأها أبو على القالى (٢٨٨ — ٣٥٦ ﻫ) على أبى جعفر : أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة — : كتاب عيون الاخبار ، وأدب الكاتب .

وقد قرأ عليه كتب أبيه كلّها : أبو القاسم الآمدى ، المتوفى سنة ٣٧٠ﻫ وقد قرأها جميعاً على الآمدى : أبو غالب : محمد بن بُشْرَان بن دينار ، المتوفى سنة ٤٠٩ ﻫ .

قد قرأ على أحمد أيضاً : أبو الفتح : محمد بن جعفر المراغى ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى : شارح خطبة أدب الكاتب .

(٢) أحمد بن مروان المالكى ، المتوفى سنة ٢٩٨ هـ . ومما رواه عنه : كتاب تأويل مختلف الحديث ؛ وقد وصل إلينا بروايته .

(٣) أبو بكر : محمد بن خلف بن المَرْزُبان ، المتوفى سنة ٣٠٩ هـ .

(٤) أبو القاسم : إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ ، المتوفى سنة ٣١٣ هـ . وقد روى عن ابن قتيبة ، كل مصنفاته .

(٥) أبو محمد : عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى السكّرى ، المتوفى سنة ٣٢٣ هـ . وقد سمع منه غريب الحديث ، وإصلاح الغلط فى سنة ٦٢٨ هـ . وقد وصل إلينا من روايته عنه ، كتاب المسائل والأجوبة ، وإصلاح الغلط .

(٦) أبو القاسم : عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمى ، المتوفى سنة ٣٣٤ هـ .

(٧) الهيثم بن كليب الشّاشى ، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ . وقد أخذ عنه الأدب خاصة .

(٨) قاسم بن أصبغ الأندلسى (٢٤٧ — ٣٤٠ هـ) . الذى رحل إلى المشرق فى سنة ٢٧٤ . وقد قرأ عليه المعارف ، وشرح غريب الحديث .

(٩) عبد الله بن جعفر بن دُرَستويه الفَسَوِىّ (٢٥٧ — ٣٥٥ هـ) وقد وصل إلينا من رواياته عنه : كتاب الأشربة .

(١٠) أبو القاسم : عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد الأَزْدِيّ ، المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

(١١) أبو بكر : أحمد بن الحسين بن إبراهيم الدينورى. وقد روى عنه: مختلف الحديث .

(١٢) أبو بكر : أحمد بن محمد بن الحسن الدينورى . قرأ عليه : تأويل مختلف الحديث ؛ كما قال ابن بطّة .

(١٣) أبو عبد الله: محمد بن أبى الأسود البلخى ، المتوفى سنة ٣٤٣ هـ .

(١٤) أبو اليسر : إبراهيم بن أحمد الشيبانى البغدادى ، المتوفى سنة ٢٩٨ هـ .

(١٥) أبو العباس : أحمد بن محمد بن عميرة الأروانى المروزى .

(١٦) أبو العباس : محمد بن على بن أحمد السكرجى مات ٣٤٢ هـ .

(١٧) أبو رجاء : محمد بن حامد بن الحارث البغدادى المتوفى ٣٤٢ هـ .

* * *

هؤلاء هم الذين وقفنا على أنهم تتلمذوا لابن قتيبة ، وقرأوا عليه كتبه كلها أو بعضها ، ونهضوا بأمانة نشرها على الآفاق .

ولقد كان ابن قتيبة ، كريمًا بعلمه ، سمْحًا فى إقراء كتبه ؛ لم يؤثر عنه : أنه حبسها عن طلابها حتى يقبض أجره ، كما أُثِرَ عن قرينه: أبى العباس المبرد (٢١٠ — ٢٨٥) ؛ الذى كان يساوم طلابه ويمتنع عن تحديث جماعتهم : إذا كان فيهم فرد واحد لم يدفع أجره مقدما ؛ ولو كان هذا الفرد غريبًا حَرِيبًا .

* * *

وظل ابن قتيبة : يقرئ كتبه ببغداد ، إلى حين وفاته فى خلافة المعتمد الذى بويع سنة ٢٥٦ ، ومات سنة ٢٧٩ .

وكان سبب وفاة ابن قتيبة ــ فيما يقول تلميذه أبو القاسم : إبراهيم الصائغ : « أنه أكل هريسة : فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغمى عليه إلى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ؛ فما زال يتشهد إلى وقت السحر ، ثم مات . وذلك : أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين ومائتين » .

وقد روى الخطيب البغدادى رواية أخرى عن تاريخ وفاته ، فقال : (١٠/١٧٠) : « قرأت على الحسن بن أبى بكر ، عن أحمد بن كامل القاضى ، قال : ومات عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين » . وهى رواية مدخولة ؛ لأن الثابت الذى لم يشبه شك : أن قاسم بن أصبغ الأندلسى سمع منه لما رحل إلى بغداد ؛ وكانت رحلته فى سنة ٢٧٤ هـ .

وقد جاء فى المنتظم لابن الجوزى ٥/١٠٢ : » وذكر بعض أهل النقل : أنه مات بالكوفة ، ودفن إلى جنب قبر أبى حازم القاضى » ؛ وهو قول مجهول ، لم يعبأ به أحد : من المؤرخين .

وقد جاء فى ص ٢٠٠ من طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر : محمد ابن الحسن الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ : أن ابن قتيبة « توفى سنة ست وتسعين ومائتين » : ولا مراء فى أن « تسعين » محرفة عن « سبعين » .

* * *

لم يتول ابن قتيبة من المناصب ـ فيما علمنا ـ إلا منصب القضاء بالدِّينَوَر ؛ ولذلك قيل له : الدِّينَوَرِىّ . ولسنا نعرف : فى أى سنة تولى قضاء هذه المدينة ، ولا مدة بقائه على قضائها ، ولا سبب خروجه منه ؟ ولا نعلم : من الذى ولّاه ؟ وإن كان يغلب على ظننا : أن الذى ولاه : الوزير أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ؛ وزير المتوكل ثم المعتمد . وكان المتوكل قد استوزر محمد بن الفضل الجرجرائى مديدة بعد قتله لمحمد بن عبد الملك الزيات فى سنة ٢٣٣ هـ ؛ ثم كثرت السعايات به فعزله ، وقال : أريد حدثاً أستوزره ؛ لأنى قد ضجرت من المشايخ . فأشير عليه : بعبيد الله بن يحيى بن خاقان . وظل عبيدالله وزيراً حتى قتل المتوكل فى سنة ٢٧٤ ؛ وفى سنة ٢٤٨ : نكبه الخليفة المستعين ونفاه إلى بَرْقَة ؛ وعاد عبيد الله إلى بغداد سنة ٢٥٣ ؛ ثم استوزره المعتمد فى شعبان سنة ٢٥٦ ، ولبث فى وَزَارته حتى مات ؛ وكان سبب موته : أنه لعب فى الميدان مع خادم له اسمه : « رشيق » ؛ فصدمه : فسقط عبيد الله عن فرسه ، ومات من يومه ؛ فصلى عليه « الموفّق » ومشى فى جنازته ؛ وذلك : يوم الجمعة لعشر خلون من ذى القعدة سنة ثلاث وستين ومائتين .

وقد كان بين ابن قتيبة وبين عبيد الله ، مودّة حملته على أن يصنّف له كتاب : « أدب الكاتب » ؛ وأن يقول عنه فى مقدمته : « .. فالحمد لله الذى أعاذ الوزيرَ أبا الحسن ـ أيده الله ـ من هذه الرذيلة ، وأبانَهُ بالفضيلة ؛ وحباه بخيم السلف الصالح ؛ وردّاه رداء الإيمان ، وغشاه بنوره ؛ وجعله هدى من الضلالات ، ومصباحاً فى الظلمات ؛ وعرّفه ما اختلف فيه المختلفون ، على

سنن الكتاب والسنة؛ فقلوب الخيار به مُغْتَلِمَةٌ ، ونفوسهم إليه مائلة، وأيديهم إلى الله فيه ـ مظانّ القبول ـ ممتدة ؛ وألسنتهم بالدعاء له شافعة : يهْجَعُ ويستيقظون ، ويغفُل ولا يغفلون ؛ وحُقّ لمن قام لله مقامه ، وصبر على الجهاد صبره ، ونوى فيه نِيَّتَهُ ـ : أن يُلبسه الله لباس الضمير ، ويُرَدِّيه رداء العمل الصالح ، ويَصُور إليه مختلفات القلوب ، ويسمده بلسان الصدق فى الآخرين» .

والذى رجح ظنى ـ فى أن عبيد الله بن يحيى هو الذى ولى ابن قتيبة قضاء « الدينور » ـ قول أبى القاسم الزجاجى فى شرح خطبة أدب الكاتب ص٣٨ ـ تعقيباً على قول ابن قتيبة . «فالحمد لله الذى أعاذ الوزير أبا الحسن» ـ : « يعنى : الخاقانى ؛ وهو عبيد الله بن يحيى الخاقانى؛ لأنه عمل له هذا الكتاب ، فأحسن صلته ، واصطنعه وصرّفه » .

وإنى أرى : أن ابن قتيبة ألف « أدب الكاتب » لعبيد الله فى وزارته للمعتمد ؛ لا فى وزارته للمتوكل ؛ وقد وزر للمعتمد من سنة ٢٥٦ إلى سنة ٢٦٣ هـ . وهذا الرأى الذى ارتأيتُهُ ، يتعارض على ما ذهب إليه ابن السيد والجواليقى ؛ فإنهما ذهبا إلى أنه ألفه له فى وزارته للمتوكل ؛ حيث يقول ابن السيد فى الاقتضاب ص ٢٤ : « يعنى عبيد الله بن يحيى بن خاقان ؛ وكان وزير المتوكل فعمل له ابن قتيبة هذا الكتاب ، وتوسل به إليه ؛ فأحسن عبيد الله صلته ، واصطنعه ، وعنى به عند المتوكل ، حتى صرفه فى بعض أعماله» ؛ ويقول الجواليقى فى شرحه ص ٤٤ : «يعنى بالوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ،

كاتب المتوكل ؛ لأنه عمل له هذا الكتاب ، فاصطنعه ، وأحسن صلته » .

ولا مراء في أنهما أخطآ في ذلك خطأ مبيناً ؛ والدليل على خطئهما لاحب لا ينفذ فيه طعن طاعن ، ولا يَطُورُ به رَيْبُ مُرتاب ؛ فقد قال ابن قتيبة بعيد كلامه على الوزير : « وأى موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتّاب ، اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لسره : فقرأ عليه كتاباً ذكر فيه « حاضرُ طيء » فصحّفه تصحيفاً أضحك الحاضرين » . وقال ابن السيد في شرحه ص ٢٧ : « هذا الكاتب هو : شجاع بن القاسم ، كاتب أوتامش التركى ؛ وكان يتولى عرض الكتب على المستعين أحمد بن محمد المعتصم . وكان جاهلا لا يحسن القراءة » . وقال الجواليقى فى ص ٤١ : « هذا : شجاع بن القاسم كاتب أوتامش التركى ؛ قرأ على المستعين ، وصحّف هـــذه اللفظة ، فقال : حاء ضرطى » . ولو قد فطن ابن السيِّد والجواليقى لما نقلاه عن الزجاجى: من أن ابن قتيبة يقصد بالكاتب: شجاع ابن القاسم ؛ وبالخليفة : المستعين ؛ لما تردّيا فى هذا الخطأ ؛ فإن المستعين : قد بويع بالخلافة سنة ٢٤٨ ، وخلع فى سنة ٢٥٢ هـ .

فكيف يتصور أن يؤلف ابن قتيبة هذا الكتاب لعبيد الله أيام وزارته للمتوكل ، مع أنه يذكر فى مقدمته قصة جرت للخليفة المستعين مع كاتبه شجاع بن القاسم ؟ ! حقا إن هذا لشىء عجاب .

* * *

وقد اتصل ابن قتيبة بالأمير : محمد بن عبد الله بن طاهر ؛ فأغدق عليه

من معروفه ، لعرفانه بقدره ، ولأن إكرام العلماء والأدباء سجية من سجاياه النبيلة، ورثها عن أبيه عبدالله بن طاهر ، أمير خراسان ، المتوفى سنة ٢٣٠هـ.

ومن مظاهر إكرام عبد الله للعلماء : مواقفه الخالدة مع أبى عُبيد : القاسم بن سلام ، المتوفى سنة ٢٢٣ هـ . عرض عليه أبو عبيد كتابه : « غريب الحديث » ؛ فاستحسنه وقال : إن عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب ، لحقيق أن لا يُحْوَج إلى طلب المعاش . وأجرى له عشرة آلاف درهم فى كل شهر وكان كلما أهداه أبو عبيد كتابا من مؤلفاته : حمل إليه مالا خطيراً . وكرم عبد الله بن طاهر ، إرْثٌ كذلك من والده طاهر بن الحسين — حين مضى إلى خراسان — بمدينة مَرْو ، فطلب رجلا يحدثه ، فقيل له : ما ههنا إلا رجل مؤدِّب ؛ فأدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلَّام ، فوجده أعلم الناس بأيام الناس ، والنحو ، واللغة ، والفقه ؛ فقال له : من المظالم تركك أنت بهذا البلد . فدفع إليه ألف دينار ، وقال له : أنا موجه إلى خراسان إلى حرب ، وليس أحب استصحابك ؛ شفقا بك ؛ فأنفق هذا حتى أعود إليك . فألف أبو عبيد « الغريب المصنف » الى أن عاد طاهر من خراسان ، فحمله معه الى سُرَّ مَنْ رَأى .

ومن مظاهر اكرام « آل طاهر » للعلماء ، ما صنعه « طاهر بن عبدالله » : من استقدامه لأبى سعيد الضرير من بغداد الى نَيْسابور ، وتكفّله بمعيشته : ليفرغ إلى تعليم الناس ما حمل من علم وأدب وقد قدم عليه ابن قتيبة من بغداد : فأخذ عنه ، وانتفع به ، وكان له قدوة حسنة .

ومن مظاهر إكرامهم العلماء كذلك ، استقدامهم إلى هراة : الحافظ أبا جعفر السرخسي المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٣ هـ .

وقـد جرى محمـد بن عبد الله بن طاهر ، على شاكلة قومه : فى العناية بالعلمـاء والأدباء ، والإلطاف لهم ؛ وعرَف هؤلاء قَدْرَه ، ونبهوا من ذكره — وما كان خاملا — وأهـدوا إليه مؤلفاتهم وما جادت به قرائحهم ؛ منذ أن كان شاباً يافعاً .

ولقد سجّل ابن قتيبة شعوره نحوه فى رسالة كتب بها إليـه ، وأثبتها فى عيون الأخبار ٢٢٢/٢ ؛ حيث يقول : « وكتبتُ إلى محمد بن عبد الله ابن طاهر :

أما شكرى للأمير على سالف معروفه : فقد أغار وأنْجَد . وأما ابتهالى إلى الله فى جزائه عنى بالُحسْنى : فإخلاص النية عند مظان القبول . وأما أملى : فأحياه — على بعد العهد — بلاؤُه عنـدى — : إذ كان ماتقدم منه شافعاً فى فى المزيد . — وفُسْحَةُ وعده إياى عند مفارقتى له : إذ كان مُؤْذِناً بالإنجاز . وأما زللى فى التأخر عما أوجب الله على له : فمقرونٌ بالعقوبة فيما حُرِمته من عِزِّ رياسته ، ونباهة صُحْبته ، وعلوِّ الدرجة به ؛ وإن كنت سائر أيام تقاطعى عنه ، مُعْتَلِقاً بسبب لاخِيارَ معه » .

ولست أعلم لابن قتيبة علاقة بعظماء عصره ، سوى علاقته بعبيد الله بن خاقان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر .

وقد أشار هو إلى علاقة لم يفصح عنها : فانبهم أمْرُها علينا ؛ حيث يقول

في عيون الأخبار ٢٨/١ : « وكتبتُ إلى بعض السلاطين كتابا ، وفى فصل منه : ولم يزل حَزَمَةُ الرجال يستحْلون مرارة قول النُّصحاء ، ويستهدون العيوبَ ، ويستثيرون صواب الرأى من كلٍّ حتى الأمة الوَكْعاء .

ومن احتاج إلى إقامة دليل على مايدَّعيه ـ : من مودته ، ونقاء طويَّتِه . ـ فقد أغنانى الله عن ذلك بما أوجبه الاضطرار ؛ إذ كنت أرجو بدوام نعمتك ، وارتفاع درجتك ؛ وانبساط جاهك ويدك ـ زيادة الحال » .

آراء العلماء فى ابن قتيبة :

١ — قال أبو منصور الأزهرى (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) فى مقدمة كتاب التهذيب ص ١٣ : « وإذ فرغنا من ذكر الأثبات المتقدمين ، والثِّقات المبرزين : من اللغويين ؛ وتسميتهم طبقة ، إعلاماً لمن غَبِى عليه مكانهم من المعرفة ، كى يعتمدوهم فيما يجدون لهم من المؤلفات المروية عنهم ـ : فلنذكر بعقب ذكرهم ، أقواماً : تسموا بسمة المعرفة ، وعلم اللغة ؛ وألفوا كتباً : أودعوها الصحيح والسقيم ؛ وحشوها بالمُزَال المفسد ، والمصَّحف المغيَّر : الذى لا يتميز مايصحّ منه إلا عند النَّقَّاب المبرِّز ، والعالم الفطن . لنحذر الأغمار اعتماد مادونوا ، والاستنامة إلى ماألفوا . فمن المتقدمين : الليث بن المظفر ... وقطرب ... » ؛ ثم عرض الأزهرى للجاحظ ، وتلميذه ابن قتيبة ، فقال ص ١٥ : « وممن تكلم فى لغات العرب بما حضر لسانه ، وروى عن الأئمة فى كلام العرب ماليس من كلامهم ـ : عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ وكان أوتى بسطة فى لسانه ، وبياناً عذباً فى خطابه ، ومجالا واسعاً فى فنونه ، غير أن

أهل المعرفة بلغات العرب ذمّوه ، وعن الصدق دفعوه ، وأخبر أبو عمر الزاهد : أنه جرى ذكره فى مجلس أحمد بن يحيى [ثعلب] ، فقال : أعزبوا عن ذكر الجاحظ ، فإنه غير ثقة ولا مأمون .

وأما أبو محمد : عبد الله بن مسلم الدينورى : فإنه ألف كتبا فى مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب غريب الحديث ، وكتابا فى الأنواء ، وكتاباً فى أدب الكتبة ؛ ورد على أبى عبيد حروفا فى غريب الحديث ، سماها : « إصلاح الغلط » ؛ وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التى غلط فيها وعلى الأكثر الذى أصاب فيه . فأما الحروف التى غلط فيها : فإنى أثبتها فى مواقعها من كتابى ، ودللت على موضع الصواب فيما غلط فيه .

وما رأيت أحداً يدفعه عن الصدق فيما يرويه : عن أبى حاتم السجزى ، والعباس بن الفرج الريّاشى ، وأبى سعيد المكفوف البغدادى .

فأمّا ما يستبد فيه برأيه — : من معنى غامض ؛ أو حرف : من علل التصريف والنحو ؛ مشكل ، أو حرف غريب — : فإنه ربما زلّ فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة .

وألفيته يحدث بالظن فيما لا يعرفه ، ولا يحسنه .

ورأيت أبا بكر بن الأنبارى : ينسبه إلى الغفلة ، والغباوة ، وقلّة المعرفة. وقد ردّ عليه قريبا من ربع ما ألّفه : من مشكل القرآن » .

وللأزهرى عنه كلمة أخرى ، وردت فى اللسان ٣٣٦/١٣ : « وقال

القتيبي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي : فرقنا ؛ وهو من زال يزُول وأزلتُه أنا . قال أبو منصور : وهذا غلط من القتيبي ، ولم يميز بين زال يزول ، وزال يَزِيل ، كما فعل الفرّاء » .

وقد عرض أبو منصور الأزهري للكلام على رواية ابن قتيبة ، أثناء حديثه عن أبي حامد الخَارَزَنجي البُشْتِي ، في مقدمة التهذيب ، إذ يقول : « وممن ألف في عصرنا هذا فصحّف وغيّر ، وأزال العربية عن وجهها — : أحمد بن محمد البشتى ، فإنه ألف كتابا سمّاه : « التكملة » ، أومأ إلى أنه كمّل بكتابه كتاب : « العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد . ونظرتُ في أول كتاب البشتى ، فرأيته أثبت في صدره الكتب المؤلفة التي استخرج منها كتابه ، فعدّدها وقال : استخرجت ما وضعته في كتابي من هذه الكتب ، ولعل بعض الناس يبتغي العنَتَ بتهجينه والقدْح فيه : لأني أسندت ما فيه إلى هؤلاء العلماء من غير سماع ، وإنما إخباري عنهم إخبارٌ عن صحفهم : ولا يزري ذلك على من عرف الغثّ من السمين ، وميزّ بين الصحيح والسقيم ، وقد فعل مثلَ ذلك أبو تراب صاحب كتاب : « الاعتقاب » ، فإنه روى عن الخليل وأبي عمرو بن العلاء ، والكسائي ، وبينه وبين هؤلاء فترة ، وكذلك القُتَيْبِيّ : روى عن سيبويه والأصمعي ، وأبي عمرو : وهو لم ير منهم أحداً » .

ثم عقب الأزهري على قول البشتي هذا ، بقوله ص ١٦ : « قد اعترف البشتي : بأنه لا سماع له في شيء من هذه الكتب ، وأنه نقل ما نقل إلى كتابه من صحفهم ، واعتل : بأنه لايزري ذلك بمن عرف الغثّ من السمين . وليس

كما قال ؛ لأنه اعترف : بأنه صَحَفي ، والصحفي إذا كان رأس ماله صحفاً قرأها : فإنه يصحِّف فيكثر ؛ وذلك : أنه يخبر عن كتب لم يسمع بها ، ودفاتر لا يدرى : أصحيح ما كتب فيها أم لا ؟ وإن أكثر ما قرأنا : من الصحف التى لم تضبط بالنقط الصحيح ، ولم يتول تصحيحها أهلُ المعرفة . — لسقيمة ، لا يعتمد عليها إلا جاهل . وأما قوله : ان غيره من المصنفين ، رَوَوْا فى كتبهم عمن لم يسمعوا منه ، مثل أبى تُرَاب والقُتَيْبيّ ، فليس رواية هذين الرجلين عمن لم يرياه ، حجة له : لأنهما وان كان لم يسمعا من كل من رَوَيا عنه ، فقد سمعا من جماعة : من الثقات المأمونين . فأما أبو تراب ... وأما القُتَيبى : فإنه رجل سمع من أبى حاتم السِّجْزى كتبه ، وسمع من الرياشى فوائد جمّة ، وكانا من المعرفة والإتقان : بحيث يثنى بهما الخناصر ، وسمع من أبى سعيد الضرير ، وسمع كتب أبى عُبيد ، وسمع من ابن أخى الأصمعى .

وهما (أى أبو تراب وابن قتيبة) : من الشهرة وذهاب الصِّيت ، والتأليف الحسن ؛ بحيث يُعفى لهما عن خطيئة غالط ، ونَبْذِ زلّة تقع فى كتبهما ... » .

* * *

٢ — قال أبو الطيب الحلبى ؛ المتوفى سنة ٣٥١ هـ : فى كتاب : « مراتب النحويين » ، ص ١٣٧ : « وكان أبو محمد : عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينورى : أخذ عن أبى حاتم ، والرِّياشى ، وعبد الرحمن بن أخى الأصمعى . وقد أخذ

ابن دريد عن هؤلاء كلهم ، وعن الأُشْنَانْدَانِيّ . إلا أن ابن قتيبة خالط عليه بحكايات عن الكوفيين ، لم يكن أخذها عن ثقات .

وكان يشرع فى أشياء لا يقوم بها : نحو تعرضه لتأليف كتابه فى النحو ، وكتابه فى تعبير الرؤيا ، وكتابه فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وعيون الأخبار والمعارف ، والشعراء ، ونحو ذلك : مما أَزْرَى به عند العلماء ، وإن كان نَفَقَ بها عند العامة ومن لا بصيرة له » .

وهذا كلام لا نَعُوج به ، ولا نعرّج عليه ، لأنه لم يصدر إلا عن عالم : قد أعمى الحقد قلبه الذى فى صدره ، وأضلّه الحسد المستكن فى أطواء نفسه ، وجعلت « العصبية » البغيضة على عينه غشاوة : تحجب عنه نور الحق ، وتنطقه بغير الصدق .

وليس أدل على فساد هذا الرأى ، وانتكاس هذا الحكم ، من أن ابن قتيبة ظل نافقاً بكتبه عند ذوى البصائر والعقول : من الخاصة والعامة ، وظلت مكانته ملحوظة من العلماء بعيون الإجلال والإكبار ، على اختلاف الأجيال والأعصار ، منذ كان إلى يوم الناس هذا .

ولكنها العصبية المقيتة ـ قاتلها الله ـ : ماقاربت شيئا إلا أفسدته وحَطت من قدره ، ولا داخلت إنساناً إلا شانته ، وغضّت من ذكره .

٣ ـــ قال الحاكم : أبو عبد الله : محمد بن عبد الله الضبيّ النيسابورى ، المعروف بابن البيّع (٣٢١ ـــ ٤٠٥) : « كان ابن قتيبة يتعاطى التقدم فى

العلوم ، ولم يرضه أهل علم منها ! وإنما الإمام المقبول عند الكل : أبو عبيد » .

وهذا كلام يقطر حقداً وعصبية وحسداً .

وقد ألهبت نار الحسد الموقدة عقل الحاكم ، واطلعت على فؤاده : فهذى هذيان المحموم ، وهمز ابن قتيبة ولمزه بقوله : « أجمعت الأمة على أن القتبيّ كذاب » !!!

وقد نقل هذه الكلمة الجائرة الفاجرة ، الحافظ الذهبي فى ميزان الاعتدال ٧٧/٢ ؛ وعقب عليها بقوله : « هذه مجازفة قبيحة وكلام من لم يخف الله » .

ونقلها مرّة أخرى ، وقال فى إثرها : « هذا بغى وتخرّص ؛ بل قال الخطيب : هو ثقة » ؛ وعقب عليها مرّة ثالثة فقال : « ما علمت أحداً اتهم القتبيّ فى نقله ، مع أن الخطيب : قد وثقه ؛ وما أعلم الأمة أجمعت إلا على كذب الدّجال ومسيلمة » .

٤ — وقال الحافظ السِّلَفِى أبو طاهر : أحمد بن محمد الأصبهانى الجروانى ، المتوفى سنة ٥٧٦ ـ : « كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنة ؛ ولكن الحاكم بضده : من أجل المذهب » . وقد فسرت كلمة « المذهب » فى قول السلفى هذا ، بتفسيرين : فقال الصلاح العلائى : إن السلفى أراد بالمذهب ما نقل عن البيهقى والدارقطنىّ : من أن ابن قتيبة كان كراميا يميل إلى التشبيه ، منحرفا عن العترة .

ثم قال العلائى : « وهذا لا يصح عنه ، وليس فى كلامه ما يدل عليه ؛ ولكنه جار على طريقة أهل الحديث : فى عدم التأويل » .

وقال الحافظ ابن حجر شهاب الدين أحمد بن على المتوفى سنة **٨٥٢** فى لسان الميزان ٣/٨/٣ : « والذى يظهر لى أن مراد السِّلَفِى بالمذهب : النَّصْب؛ فإن فى ابن قتيبة انحرافاً عن أهل البيت ، والحاكم على ضد من ذلك . وإلا : فاعتقادهما معاً ـ فيما يتعلق بالصفات ـ واحد » .

٥ — قال الدارقطنى أبو الحسن : على بن عمر بن أحمد بن مهدى (٣٠٦ — ٣٨٥) : « كان ابن قتيبة : يميل إلى التشبيه ، منحرفا عن العترة. وكلامه يدل عليه » .

٦ — قال البيهقى أبو بكر : أحمد بن الحسين (٣٨٤ — ٤٥٨) : « كان ابن قتيبة : يرى رأى الكرّامية » .

٧ — قال ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣/٧٥ — بعد أن نقل كلام الدارقطنى والبيهقى ـ : « وكان ابن قتيبة : خبيث اللسان ، يقع فى حق كبار العلماء » .

٨ — قال ابن النديم أبو الفرج : محمد بن إسحاق :

« كان ابن قتيبة : صادقاً فيما يرويه ، عالمـا باللغة والنحو ؛ وكتبه مرغوب فيها » .

٩ — قال مسلم بن قاسم :

« كان ابن قتيبة : لغويا كثير التأليف ، عالما بالتصنيف ، صدوقا ، من أهل السنة » .

١٠ — قال الخطيب البغدادى (٣٩٢ — ٤٦٣) فى تاريخ بغداد ١٠/١٧٠ : « هو صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة ؛ وكان : ثقة ، دينا ، فاضلا » .

وقال عنه فى كتاب «المتفق والمفترق» : « شهرته ظاهرة فى العلم ، ومحلّه من الأدب لا يختر » .

١١ — قال نِفْطَوَيْهِ أبو عبد الله : إبراهيم بن محمد بن عرفه (٢٤٤ — ٣٢٣) : « كان ابن قتيبة : إذا خلا فى بيته وعمل شيئا ـ : جوّده ؛ وما أعلمه حكى شيئاً فى اللغة ، إلا : صدق فيه » .

١٢ — قال ابن حزم أبو محمد : على بن أحمد بن سعيد (٣٨٤— ٤٥٦) : « كان ابن قتيبة : ثقة فى دينه وعلمه » .

١٣ — قال إمام الحرمين أبو المعالى : عبد الملك بن عبد الله الجُوينى (٤١٩ — ٤٧٨) : « ابن قتيبة : هَجّام وَلُوج فيما لا يحسنه » . وقد نقل ابن حجر هذه هذه الكلمة فى لسان الميزان ، ثم علق عليها بقوله : « كأنه يريد كلامه فى الكلام » .

١٤ — قال الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ — ٧٤٨) فى ميزان الاعتدال ٢/٧٧ : « أبو محمد : صاحب التصانيف ، صدوق ، قليل

الرواية » ؛ وقال فى تذكرة الحفاظ ٢/١٨٧ : « ابن قتيبة : من أوعية العلم ؛ لكنه قليل العمل فى الحديث » .

١٥ — قال ابن الجوزى أبو الفرج : عبد الرحمن بن على ، المتوفى سنة ٥٩٧ ، عنه فى المنتظم ٥/١٠٢ : « وكان : عالما ثقة دينا فاضلا ، وله التصانيف المشهورة » .

١٦ — قال الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر ، المتوفى سنة ٧٧٤ ، فى البداية والنهاية ١١/٤٨ ، ٥٧ : « ابن قتيبة النحوى اللغوى : صاحب المصنفات الكثيرة ، البديعة المفيدة ، المحتوية على علوم جمة نافعة ؛ أحد العلماء والأدباء ، والحفاظ الأذكياء ؛ كان : ثقة نبيلا » .

١٧ — قال أبو بكر بن دريد (٢٢٣ — ٣٢١) وقد سئل عن ابن قتيبة ، فقال : « ربوة بين جبلين » ، يريد : أن ذكره قد خمل بنباهة ثعلب والمبرِّد ، كما قال الجرجانى .

١٨ — أما ابن تيمية تقى الدين : أحمد بن عبد الحليم ، المتوفى سنة ٧٢٨ فقد ذكر فى تفسير سورة الإخلاص ص ١٢١ : أن الإمام أحمد بن حنبل يذهب الى أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه . ثم عقب على ذلك بقوله : « وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة ، منهم : ابن قتيبة ، وأبو سليمان الدمشقى وغيرهما . وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق بن راهويه ، والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة ، وله فى ذلك مصنفات متعددة ، قال فيه صاحب « التحديث بمناقب أهل الحديث » :

وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء الفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً؛ له زهاء ثلاثمائة مصنف . وكان يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق ؛ وكان معاصراً لإبراهيم الحَرْبىّ ، ومحمد بن نصر المَرْوزى ؛ وكان أهل المغرب : يعظمونه ، ويقولون: من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ! ويقولون: كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه . ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ؛ فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

١٩ — وقال ابن خلكان أبو العباس: أحمد بن محمد (٦٠٨ — ٦٨١) ، عنه فى وفيات الأعيان ٢/٢٤٦ :

« كان : فاضلا ثقة ؛ وتصانيفه كلها مفيدة ... » .

* * *

تلك هى أراء العلماء الأقدمين فى ابن قتيبة : أوردناها كما رأيناها ؛ ويعنينا هنا : أن نتبين وجه الحق فيما قُرِفَ به من تهم ؛ وعُضِه به : من مثالب .

وسبيلنا إلى ذلك : أن نوازن بين ما قالوه عنه ، وما قاله غيرهم ، وما قاله فى كتبه — موازنة دقيقة ، قوامها العدل الخالص من شوائب الهوى ، والإنصاف الباسل الذى لا يبالى : على من وجبتِ الحجة ، وحقت كلمة الخطأ والضلال .

فإن كان ما قالوه حقاً : أيدناه بالمثل والشواهد التى تجعل القلوب إليه صاغية ، والعقول جانحة جنوحاً لا خيار فيه .

وإن كان ما ذهبوا إليه مَيْناً : أبدينا عواره ، وهتكنا أستاره ؛ بما نورده : من الأدلة الناصعة ، والبراهين القاطعة ؛ ثم قدمنا إليهم ، فكشفنا عن أسباب ضغنهم عليه ، وكراهيتهم له ؛ وبينا أسرار اختلافهم عليه ، ومنازع وقيعتهم فيه .

* * *

لقد اتهمه « الحاكم » : بأنه كذاب قد أجمعت الأمة على كذبه ؛ ولم يؤيد دعواه بمثال واحد بل : لجـأ إلى التهويل والتهويش بإجماع الأمة . وتلك أكذوبة بلقاء : لم تجد مصدقاً أومظاهراً ولا تستحق أن نعرض لها بالتوهين . وحسبها نقد الذهبي لها ؛ وحسبنا إجماع الأزهرى ، والخطيب البغدادى ، ومسلم بن قاسم ، والحافظ السلفي ، وابن النديم ، ونفطويه ، وابن حزم ، وابن كثير ، وابن الجوزى ، وابن خلكان — حسبنا إجماع هؤلاء الأعلام : على أن ابن قتيبة كان ثقة فى قوله ، صادقاً فى روايته ، مُصَدَّقاً .

وقد اتهمه الدارقطنى : بأنه كان يميل إلى التشبيه ، منحرفاً عن العترة .

واتهمه البيهقيّ : بأنه كان كرّاميا .

وليس بين هذين الاتهامين من فـرق فى المعنى : فكلاهما ينسبه إلى التشبيه ، والانحراف عن آل البيت رضوان الله عليهم ؛ فإن الكرّامية (الذين تابعوا محمد بن كـرّام على رأيه) كانوا يذهبون إلى التجسيم والتشبيه ؛ ويتهمون علياً فى صبره على ما جرى مع عثمان ، وسكوته عنهُ ويرون

تصويب معاوية فيما استبد به من الأحكام الشرعية : قتالا على طلب قتلة عثمان ، واستقلالا ببيت المـال .

فهل كان ابن قتيبة يذهب حقاً إلى التشبيه ؟ وهل كان منحرفا عن آل البيت؟ أم أن هذا وذاك قد افترى عليه، ورمى به بغير الحق ؛ كما رمى بالـكذب زوراً وبُهْتَاناً ؟ .

أما نسبة ابن قتيبة إلى التشبيه والتجسيم : فهى من منـكر القول وزوره .

وكيف يصح فى الأذهان أن يكون ابن قتيبة من المشبهة ؛ وهو مؤلف كتاب : « الاختلاف فى اللفظ ، والرد على الجهمية والمشبهة » ؛ ! .

كيف يكون منهم : وهو القائل فى كتابه هذا ص ٢٩ : « فنحن نقول كما قال الله ، وكما قال رسوله ؛ ولا نتجاهل ؛ ولا يحملنا ما نحن فيه : من نفى التشبيه ؛ على أن ننـكر ما وصف به نفسه ؛ ولـكنا لا نقول : كيف البيان ؟ وإن سئلنا : نقتصر على جملة ما قال ، ونمسك عما لم يقل » ؟ ! .

كيف يكون منهم : وهو الذى يقول فى ص ٣٢ : « فنحن نؤمن بالنفخ وبالروح ؛ ولا نقول : كيف ذلك ؟ لأن الواجب علينا أن ننتهى فى صفات الله إلى حيث انتهى فى صفته، أو حيث انتهى رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب وتضعه عليه ؛ ونمسك عما سوى ذلك » ؟ ! .

كيف يكون منهم : وهو الذى يقول فى ص ٤٥ : « ... ولمـا رأى قوم من الناس إفراط هؤلاء فى النفى : عارضوهم بالإفراط فى التمثيل ؛ فقالوا :

بالتشبيه المحض ، وبالأقطار والحدود ... وكلا الفريقين غالط ، وقد جعل الله التوسط : منزلةَ العدل ؛ ونهى عن الغلو فيما دون صفاته : من أمر ديننا ؛ فضلا عن صفاته ، ووَضَع عنا أن نفكر فيه : كيف كان ؟ وكيف قدّر ؟ وكيف خلق ؟ ولم يكلفنا مالم يجعله فى تركيبنا ووُسْعِنا . وعَدْلُ القول فى هذه الأخبار : أن نؤمن بما صحّ منها بنقل الثقات لها ، فنؤمن : بالرّؤية والتجلّى ، وأنه يَعْجَبُ ، وينزل إلى السماء ، وأنه على العرش استوى ، وبالنفس واليدين من غير أن نقول فى ذلك بكيفيَّة أو بحدٍّ أو أن نقيس على ماجاء مالم يأت . فنرجو : أن نكون فى ذلك القول والعقد ، على سبيل النجاة غداً ، إن شاء الله تعالى » ؟ ! .

أيقول هذا القول السَّوىَّ ، من يقول بالتشبيه والتجسيم ؟ : إن ابن قتيبة قد نهج فى كلامه هذا ، نهج النمط الأوسط من السلف الصالح : وسلك سبيلهم متبعاً غير مبتدع .

قال أبو الفتح : محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (٤٧٩ — ٥٤٨) فى كتابه : « الملل والنحل » — : « وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولم يهدفوا للتشبيه ، فمنهم : أحمد بن حنبل ، وسفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، إذ قال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

فهل بين قول مالك بن أنس وبين قول ابن قتيبة ، فرق ؟ : كلا ،

ولكن البيهقيّ والدارقطنيّ قد كذبا عليه حين رمياه بالتشبيه ، كما كذب الحاكم فى رميه بالكذب .

* * *

وأما القول : بأن ابن قتيبة كان منحرفا عن آل البيت ؛ فمحض افتراء عليه ، كسابقه .

وقد لجأ قارفوه بهذه التهمة الخطيرة ، إلى إلقاء الحكم إلقاء : دون تثبيته فى النفوس بالمثال ؛ شأنهم فى كل ما رموه به : من تهم ؛ وألصقوا به : من وصمات .

ولكن من دفع هذه التهمة عنه هيّن ليّن : لا يحوج إلى إعمال فكر ، أو إجالة روية ، أو كد خاطر ؛ ولكنه يحتاج إلى قليل : من الأناة ؛ فى قراءة قوله الذى أفصح به عن رأيه فى على كرم الله وجهه ، وأعرب به عن تقديره لمكارمه ومفاخره ، ومكانه السامى من رسول الله ودين الله ، ومكانته من الفضل والبأس ، والعلم والدين جميعاً .

قال ابن قتيبة فى كتاب « الاختلاف فى اللفظ والردّ على الجهمية والمشبّهة » ص ٤٧ : « ... وقد رأيت هؤلاء أيضاً ـ حين رأوا غلو الرّافضة : فى حب علىّ ، وتقديمه على من قدّمه رسول الله « صلى الله عليه وسلم » وصحابته عليه ؛ وادعاءهم له شركة النبى صلى الله عليه وسلم : فى نبوّته : وعلم الغيب للأئمة : من ولده ؛ وتلك الأقاويل والأمور السّرّية : التى جمعت

إلى الكذب والكفر إفراط الجهل والغباوة ؛ ورأوا شتمهم خِيَار السَّلف ، وبُغْضَهم وتبرؤهم منهم — : قابلوا ذلك أيضا ، بالغلو : فى تأخير علىّ كرم الله وجهه ، وبخسِهِ حقَّه ؛ ولحنوا فى القول ؛ وإن لم يصرحوا إلى ظلمه ، واعتدوا عليه : بسفك الدماء بغير حق ، ونسبوه إلى الممالأة على قتل عثمان رضى الله عنه ؛ وأخرجوه بجهلهم من أئمة الْهدَى إلى جملة أئمة الفتن ، ولم يوجبوا له اسم الخلافة : لاختلاف الناس عليه ؛ وأوجبوها ليزيد بن معاوية : لإجماع الناس عليه ؛ واتهموا من ذكره بخير . وتحامى كثير من المحدِّثين : أن يحدِّثو بفضائله كرَّم الله وجهه أو يُظهروا ما يجب له : وكلّ تلك الأحاديث لها مخارج صحاح . وجعلوا ابنه الحسين عليه السلام خارجيًّا ، شاقًّا لعصا المسلمين ، حَلَالَ الدَّم ؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من خرج على أمَّتى : وهم جميع ؛ فاقتلوه كائنا من كان » . وسووا بينه — : فى الفضل — وبين أهل الشورى : لأن عمر لو تبيَّن له فضلُه لقدَّمه عليهم ، ولم يجعل الأمر شورى بينهم . وأهملوا من ذَكَرَهُ ، أو روَى حديثا من فضائله ؛ حتى تحامى كثير من المحدِّثين . أن يتحدَّثوا بها . وعُنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ، ومعاوية : كأنهم لا يريدونهما بذلك ، وإنما يريدونه . فإن قال قائل . « أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم : علىٌّ ، وأبو سبيطه : الحسن والحسين ، وأصحاب الكساء : علىّ وفاطمة والحسن والحسين » — تمعَّرَت الوجوهُ ، وتنكّرت العيونُ ، وطَرَّتْ حسائك الصدور . وإن ذَكَرَ ذاكرٌ قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من كنت مولاه فعلىّ موه » ؛ و : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » » ؛ وأشباه هذا — : التمسوا لتلك الأحاديث

المخارج لينتقصوه ويبخسوه حقه: بغضاً منهم للرافضة وإلزاما لعليّ عليه السلام — بسببهم — مالا يلزمه . وهذا هو الجهل بعينه .

والسلامة لك : أن لاتهلك بمحبّته ، ولا تهلك ببغضته ؛ وأن لاتحمل عليه ضغناً : بجناية غيره . فإن أنت فعلت : فأنت جاهل مُفْرِط فى بغضه .

وأن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالتربية والأخوّة والصّهر ، والصبر فى مجاهدة أعدائه ، وبذْل مُهجته فى الحروب بين يديه ، مع مكانه : فى العلم والدين ، والبأس والفضل — من غير أن تتجاوز به الموضع الذى وضعه به خيار السلف: لِمَا تسمعه من كثير : من فضائله؛ فهم كانوا أعلم به وبغيره ، ولأن ماأجمعوا عليه هو : العِيان الذى لا يُشك فيه . والأحاديثُ المنقولة قد يدخلها تحريف وشَوْبٌ .

ولو كان إكرامُك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الذى دعاك إلى محبة من نازَع عليا وحاربَه ولعنه — : إذ صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخَدَمه ، وكنت قد سلكت فى ذلك سبيل المستسلم — : لَأَنْتَ بذلك فى عليّ عليه السلام ، أولى : لسابقته ، وفضله ، وخاصّيته ، وقرابته ؛ والدناوة التى جعلها الله بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم : عند المُباهلة ؛ حين قال تعالى : ﴿قل تعالوا ندْعُ أبناءنا وأبناءكم﴾ : فدعا حسنا وحسينا ؛ ﴿ونساءنا ونساءكم﴾ : فدعا فاطمة عليها السلام ؛ ﴿وأنفسنا وأنفسكم﴾ : فدعا عليا عليه السلام . ومن أراد الله تَبْصِيرَه : بَصَّره ؛ ومن أراد به غير ذلك : حيَّره » .

هذا كلام ابن قتيبة الذى صوّر فيه — فى قوة ووضوح — مشاعره نحو علىّ وآله ؛ وعبّر عما يجنه فؤاده : من محبتهم وإجلالهم ، وحسن الرأى والاعتقاد فيهم .

فهل يصدر هذا الكلام المذب عمن يجتويهم ، ويسىء الظن بهم ؟ وهل يدخل فى نطاق المعقول : أن يقوله من يتهم بالانحراف عنهم ؟ .

ولكن القوم أصموا آذانهم عنه ، وأطبقوا أعينهم دونه ، واستغشوا ثياب العصبية الضيقة ، ثم ذهبوا : يتناقلون رميه ببعض آل البيت ، والميل عن مودّتهم ، لموجدة يجدون مسّها فى نفوسهم عليه .

ولعل من أسباب هذه الموجدة ، تلك الرواية التى رواها عن الشعبى فى « تأويل مشكل القرآن » ، حيث يقول فى ص ١٨١ : « وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه ورضى عنهم — : وهم مصابيح الأرض ، وقادة الأنام ، ومُنْتَهى العلم . — إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع والبعض والشطر من القرآن ، إلا نفراً منهم : وفقهم الله لجمعه ، وسهل عليهم حفظه . قال الشعبى : توفى أبو بكر ، وعمر ، وعلى — رحمهم الله — : ولم يجمعوا القرآن . وقال : لم يختمه أحد من الخلفاء غير عثمان . ورُوى عن شريك ، عن إسماعيل بن أبى خالد : أنه قال : سمعت الشعبى تحلف بالله عز وجل : لقد دخل على حفرته وما حفظ القرآن » .

ولقد أثارت هذه الرواية ثائرة أبى الحسين : أحمد بن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ ، قال فى كتاب الصاحبى ص ١٧٠ : « وابن قتيبة يطلق إطلاقات

منكرة ، ويروى أشياء شنعة ؛ كالذى رواه عن الشعبى : أن أبا بكر وعمر وعليا توفوا ، ولم يجمعوا القرآن ؛ وأن عليا دخل حفرته ، وما حفظ القرآن وهذا كلام شنع جداً ... » .

* * *

أما قول إمام الحرمين : « إن ابن قتيبة هجّام ولوج فيما لا يحسنه » ؛

فإنه يريد : كلامه فى الكلام ، كما قال ابن حجر . ولابن قتيبة كلام عن هذا العلم ، لا يروق فى نظر رجل انغمس فيه من فرقه إلى قدمه ، وقضى حياته فى تحقيق مسائله ؛ كإمام الحرمين . فقد قال فى كتاب « الاختلاف فى اللفظ ، والرد على الجهمية والمشبهة » ص ١٢ — أثناء رده على ما تأولته الجهمية — : « ولم أعد فى أكثر الرد عليهم طريق اللغة ؛ فأما الكلام فليس من شأننا ؛ ولا أرى أكثر من هلك إلا به . ويحمل الدين على ما يوجبه القياس ... » .

وقال فى كتاب : « تأويل مختلف الحديث » ص ١٥ : « وقد تدبرت مقالة أهل الكلام ؛ فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويعيبون الناس بما يأتون ، ويبصرون القذى فى عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم فى النقل ولا يتهمون آراءهم فى التأويل . ومعانى الكتاب والحديث ، وما أودعاه — : من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة — لا يدرك بالطفرة والتولّد ، والعرض والجوهر ، والكيفية والكميّة والأينيّة . ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما وضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ،

وَلـكن يمنع من ذلك طلب الرياسة ، وحب الأتباع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات ؛ والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضا ... » . وقال فى ص ٧٤ : « وكنت فى عنفوان الشباب ، وتطلُّب الآداب ، أُحبّ أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم — : وأنا مغتر بهم ، طامع أن أَصْدُر عنه بفائدة ، أو كلمة تدل على خير ، أو تهدى لرشد . — فأرى من جرأتهم على الله ، تبارك وتعالى ، وقلّة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظائم — : لطرد القياس ، أو لئلا يقع انقطاع — ماأرجع معه خاسراً نادماً » .

* * *

وأما قول ابن تغرى بردى : « كان ابن قتيبة خبيث اللسان ، يقع فى حق كبار العلماء ؛ فغير صحيح أيضاً .

والذى دفعه إلى هذا القول أنه من الأحناف أصحاب الرأى والقياس . وقد عرض لهم ابن قتيبة بالنقد ، فى كتاب « تأويل مختلف الحديث » وقال فى ص ٦٢ : ثم نصير إلى أصحاب الرأى ، فنجدهم أيضا يختلفون ويقيسون ، ثم يدَعُون القيــاس ويستحسنون ؛ ويقولون بالشيء ويحكمون به ثم يرجعون » .

ثم ضرب لذلك أمثلة خطيرة رجع فيها أبو حنيفة عن رأيه ؛ رواها عن أستاذه إسحاق ابن راهويه ، الذى قال عنه فى ص ٦٥ : « ولم أر أحداً ألهج بذكر أصحاب الرأى وتنقصهم ، والبحث على قبيح أقاويلهم ، والتنبيه

عليها — من إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، المعروف بابن راهويه . وكان يقول : نبذوا كتاب الله تعالى وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولزموا القياس » .

وعدد ابن قتيبة من ذلك ، مسائل كثيرة رواها عنه ؛ كما روى مسائل أخرى تدل — كما يقول ابن راهويه — : « على تحكم أبى حنيفة فى الدين ، ومخالفة كتاب الله » . ثم قال ابن قتيبة فى ص ٧٠ : « وكيف يطرد لك القياس فى فروع لا تتفق أصولها والفرع تابع للأصل ؟ ! وكيف يقع فى القياس : أن يقطع سارق عشرة دراهم ويمسك عن غاصب مائة ألف درهم ؛ ويجلد قاذف الحرّ ، ويعفى عن قاذف العبد العفيف ؛ وتُستبرأ أرحام الإماء بحيضة ، ورحم الحرة بثلاث حيضات ؛ ويحصن الرجل بالعجوز الشوهاء السوداء ، ولا يحصن بمائة أمة حسناء ؛ ويُوجب على الحائض قضاء الصوم ، ولا يوجب عليها قضاء الصلاة ؛ ويجلد فى القذف بالزنا أكثر من الجلد فى القذف بالكفر ؛ ويقطع فى القتل بشهادين ، ولا يقطع فى الزنا بأقل من أربعة ؟ ! » .

فأنت ترى : أن ابن قتيبة لم يكن خبيث اللسان فى حديثه عن أهل الرأى ، وإنما عرض لهم بالنقد العلمى فى بعض ما ذهبوا إليه ، وروى عن أساتذته ما تدعو ضرورة البحث إلى روايته ، وإذا تحدث عن رأيه : تحدث بأسلوب مهذب مؤدب ، لا يصح وصفه بالخبث ، ولا نعته بالوقيعة .

وقد خدعت كلمة ابن تغرى بردى هذه ، الأستاذ محمد كرد على ، وجعلته يقول مقدمته لكتاب الاشربة ص ٤ :

« اشتد ابن قتيبة على مخالفيه ولا سيما المعتزلة منهم وفى كتابه تأويل مختلف الحديث : طعن مبرّح فى الجاحظ ، قال فيه : إنه أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل ، فتجلى حسده تجلياً ظاهراً .

هجّن ابن قتيبة الجاحظ وكفّره ، ورماه بأعظم كبيرة وهى الكذب ؛ وسجل عليه أنه أكذب واحد فى الأمة ؛ لأنه كتب فى أشياء تنفع فى تربية العقول فى الدنيا ، كما كتب كلّ ما ينفع فى الدين ؛ وابتدع أدباً يسلى ويعلّم .

فهل من العدل أن يرمى بوضع الحديث وتشدده وتشدّد أهل مذهبه ــ فى تحرى السليم من السقيم فى الحديث . ــ لا يحتاج إلى دليل ؟ ! » .

إن ابن قتيبة لم يظلم الجاحظ ، ولم يهجنه حسداً من عند نفسه ؛ ولم يتهمه بالكذب ، لما زعمه الأستاذ ، بل أنصفه ، وقال فيه ماله ، كاملا غير منقوص ؛ ونقده فى بعض رأيه بما لا يسع المسلم الحقيقىّ إلا نقده وردّه على قائله : كائنا من كان .

وإليك نص كلام ابن قتيبة فى كتابه تأويل مختلف الحديث ، قال فى ص ٨١ : « ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ؛ ويبلغ به الاقتدار أن يعمل الشيء ونقيضه ؛ ونجده

يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحـــداث وشراب النبتذ .

ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ؛ كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان ؛ وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ويذكر الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة . وأشياء من أحاديث أهل الكتاب ، فى تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمّه فى رأسه ، وتسبيح الضّفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا مما سنذكره فيما بعد ، إن شاء الله . وهو ـ مع هذا ـ من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث، وأنصرهم لباطل » .

هذا هو رأى ابن قتيبة فى الجاحظ ، وهو يلقف ما يقول عنه الأستاذ محمد كرد على .

ولست أدرى : كيف استباح لنفسه الطعن فى ابن قتيبة بذلك الأسلوب التهكمى مع أنه لم يستطع أن ينقد مما قاله حرفًا واحداً ؟ !

أتُراه كان ينتظر منه تقريظ الجاحظ لاستهزائه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! .

ومن دلائل وضع الجاحظ للأحاديث ، ما حدث به أبو العيناء بعد توبته عن وضعها ؛ قال أنا والجاحظ وضعنا حديث فَدَكَ ، وأدخلناه على

الشيوخ ببغداد ، فقبلوه إلا ابن أبي شيبة العلوى ، فإنه قال : لا يشبه هذا الحديث أوله ، وأبى أن يقبله » .

وكذلك وضع الجاحظ فى كلام العرب ما ليس منه ، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة ؛ وقد سجّل عليه ذلك أبو العباس : ثعلب ، إذ يقول : « اعزبوا عن ذكر الجاحظ : فإنه غير ثقة ولا مأمون » .

ولا مراء فى أن الجاحظ قد صنع كثيراً من نصوص الأدب ؛ وعزاها إلى غيره من العرب تارة ، والأعاجم أخرى .

وهذه كلها دلائل تدل على أن ابن قتيبة لم يصف أستاذه الجاحظ إلا بما عرفه من خلاله ونوازعه ؛ ولم يحاول : « أن يسحب عليه ذيل النسيان » ؛ كما يقول الأستاذ محمد كرد على رحمه الله .

وأعجب مما سبق ، قول الأستاذ محمد كرد على عن ابن قتيبة :

« ورمى أيضاً أبا الهذيل العلّاف بما ليس فيه ؛ ووصفه بأنه كذاب أفّاك ، وطعن فيه أشنع طعن .

وكذلك كان حظ ثمامة بن الأشرس منه ـ وهما من الأئمة ـ ورمى هذا برقة الدين ، وتنقّص الإسلام ، والاستهزاء به .

وطعن فى النظام أيضا وهو الذى رد على الملحدين والدهريين ، شطراً كبيراً من عمره .

ولست أدرى : من أين علم الأستاذ أن ابن قتيبة افترى على أبى الهذيل الكذب ووصفه بما ليس فيه .

هل قرأت كتب « التوحيد » فألفى فيها ما يكذبه .

أم هل قرأ كتب « التراجم » فوجد فيها تكأة له فى تكذيبه ؟

إنه لم يقرأ شيئاً من هذه ولا تلك ! وآية ذلك أن وصف ابن قتيبة له بالبخل ورقة الدين ؛ مسطور فيها جميعًا .

وقد كرر الجاحظ فى كتبه وصفه له بالبخل ، وقال عنه : « إنه كان أبخل الناس » . ووصفه كذلك بأوصاف كثيرة فى طليعتها النفاق !

واتفق المترجمون له والباحثون فى مذهبه الكلامى علي أن دينه كان من بيت العنكبوت :

قال الخطيب البغدادى فى ترجمته ٣٦٦/٣ : « وكان أبو الهذيل خبيث القول ، فارق إجماع المسلمين ، ورد نص كتاب الله إذ زعم أن أهل الجنة تنقطع حركاتهم فيها حتى لا ينطقوا بكلمة ولا يتكلموا بكلمة ؛ فلزمه القول بانقطاع نعيم الجنة عنهم ، والله يقول : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ . وجحد صفات الله التى وصف بها نفسه ، وزعم أن علم الله هو الله ، وقدرة الله هى الله ! فجعل الله علما وقدرة ، تعالى الله عما وصفه به علواً كبيراً » .

ومذهب أبى الهذيل - : فى انتهاء حركات أهل الجنة والنار . - قريب من مذهب جهم بن صفوان الذى زعم أن الجنة والنار تفنيان وتبيدان ،

ويفنى من فيهما ، حتى لا يبقى إلا الله وحده ، كما كان وحده لا شيء معه ، بل إن مذهبه شر من مذهب جهم - كما يقول البغدادى فى « الفرق بين الفِرَق » - : « لأن جهما - وإن قال بفناء الجنة والنار - فقد قال : إن الله قادر بعد فنائهما ، أن يخلق غيرهما » ؛ وأبو الهذيل زعم أن ربّه لا يقدر بعد انتهاء الحركات - : على تحريك ساكن ، أو إحياء ميت ، أو إحداث شيء » . ويقول البغدادى عنه أيضاً فى ص ٧٢ : « وفضائحه تترى ، تكفِّره فيها سائر فرق الأمة : من أصحابه فى الاعتزال ، ومن غيرهم » .

أفبعد ذلك ، يصح اتهام ابن قتيبة بأنه وصف أبا الهذيل بما ليس فيه ، طعناً بغير الحق وتشنيعاً ؟ !

وكما كان ابن قتيبة منصفاً صادقاً فى حكمه على أبى الهذيل العلّاف - فإنه كان كذلك صادقا منصفا فى حكمه على « ثمامة بن الأشرس » بأنه كان يتنقص الإسلام ورسول الإسلام ، ويحتد عليهما حقداً غليظا منكراً .

ولا أريد أن أنقل من حصائد لسانه ، ونزوات بنانه ؛ فى ذلك شيئا . وحسبى أن أورد بعض ما قاله البغدادى عنه فى ص ١٠٢ ، ٢٠٤ : « وكان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعتصم والوثق ؛ وانفرد عن سائر أسلافه المعتزلة ، ببدعتين أكفرته الأمة كلها فيهما » .

وأما طعن ابن قتيبة فى « النظام » فشاهده من الصدق والأمانة ، قول البغدادىّ فى الفرق بين الفرق ص ٨٠ « وجميع فرق الأمة - : من فريقى

الرأى والحديث ، مع الخوارج والشيعة والنَّجَّاريّة ، وأكثر المعتزلة . — متفقون على تكفير النظام » .

ويتضح من ذلك كله : أن ابن قتيبة لم يغال « فى طعنه بما لم يناسب عظمة علمه وأخلاقه » ؛ ويتبين أنه إنما انتهج فيه النهج الذى رسمه لنفسه ؛ وهو أن يُصْحِر بالحق فيما ارتأى ؛ لا يجنح لظلم ، ولا يتبع الهوى .

* * *

وكان من أشد العلماء عداوة لابن قتيبة : أبو بكر : محمد بن القاسم الأنبارى (٢٧١ — ٣٢٨) ، تلميذ أبى العباس : ثعلب ؛ ورائد تلك الطائفة التى رمته بالكذب ، وعداوة العترة ، والذهاب إلى التشبيه والتجسيم . فقد كان ابن الأنبارى أستاذاً للدارقطنى ؛ وكان الدارقطنى أستاذاً للحاكم ؛ وكان الحاكم أستاذاً للبيهقى .

وقد نسبه إلى الغفلة والغباوة ، وقلة المعرفة ؛ وردّ عليه قريباً من ربع ماألفه من مشكل القرآن ؛ كما حدث الأزهرى . وعمل « رسالة المشكل » التى قصرها على نقده ونقد أستاذه أبى حاتم السجستانى ، وأملى كتاب « المشكل » فى سنين كثيرة ، ولم يبلغ فيه إلا إلى سورة طه .

ولم يصل إلينا من كتبه التى تناوله فيها بالنقد ، غير كتاب : « الأضداد » الذى نقد فيه بعض ماذهب إليه فى كتابيه : « إصلاح الغلط » ، و « تأويل مشكل القرآن » .

وقد سلك فى نقده له غير سبيل الحق ، وسجل عليه العلماء الذين قرأوا كتبه — : أنه كان يردّ عليه أقواله كلها ، ويتعسف فى طعنه ، ويحتج لردّه بأوابد اللغة وشواذّها .

قال الشريف المرتضى (٣٥٥ — ٤٣٦) فى كتابه : « غرر الفوائد ودرر القلائد » المشهور بالأمالى ١٣/٢ : « ووجدت أبا بكر : محمد بن القاسم الأنبارى ، يطعن على جواب من أجاب فى قوله تعالى : ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ ، بأن معناه : كادت تبلغ الحناجر . ويقول : كاد لاتضمر ، ولا بد من أن يكون منطوقا بها ، ولو جاز ضميرُها لجاز : « قام عبد الله » ، بمعنى : كاد عبد الله يقوم ، فيكون تأويل « قام عبد الله » : لم يقم عبد الله ، لأن معنى « كاد عبد الله يقوم » : لم يقم .

وهذا الذى ذكره ابن الأنبارى غير صحيح . ونظن أن الذى حمله على الطعن فى هذا الوجه ، حكايته له عن ابن قتيبة ؛ لأن من شأنه أن يرد كلّ مايأتى به ابن قتيبة ، وإن تعسف فى الطعن عليه !!!

والذى استبعده غير بعيد ؛ لأن « كاد » قد تضمر فى مواضع يقتضيها بعض الكلام وإن لم تكن فى صريحه . ألا ترى : أنهم يقولون : أوردت على فلان : — من العتاب والتوبيخ والتقريع . — مامات عنده ، وخرجت نفسه ، ولما رأى فلان فلانًا لم يبق فيه روح ، وما أشبه ذلك . ومعنى جميع ماذكرناه : المقاربة ، ولا بد من إضمار « كاد » فيه ... وإذا كان الأمر على ماذكرنا ، لم يمتنع أن يقال : قام فلان ، بمعنى : كاد يقوم ، إذا دلت

الحال على ذلك ، كما يقال : مات ، بمعنى : كاد يموت .

فأما قوله : « فيكون تأويل قوله : قام عبد الله ؛ لم يقم عبد الله » خطأ ؛ لأنه ليس معنى كاد يقوم : أنه لم يقم ؛ كما ظن ؛ بل معناه : أنه قارب القيام ، ودنا منه . فمن قال : قام عبد الله ، وأراد كاد يقوم ، فقد أفاد ما لا يفده : لم يقم » .

ومعلوم : أن هوى المرتضى ليس مع ابن قتيبة ؛ فهو لا يكاد يصرّح باسمه إلا فى معرض النقد والتخطئة . ولكن غلو ابن الأنبارى فى تحامله على ابن قتيبة ، دفعه إلى أن يقول ذلك ، وأن يقول تعقيباً على نقد آخر : « إن ما ذكره ابن الأنبارى لا يقدح فى كلام ابن قتيبة » .

وقال ابن تيمية فى تفسير سورة الإخلاص ص ١٣٣ : « وأما اللغويون الذين يقولون : إن الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه ؛ فهم متناقضون فى ذلك ؛ فإن هؤلاء كلهم يتكلمون فى تفسير كل شىء من القرآن ، ويتوسعون فى القول فى ذلك ؛ حتى ما من أحد إلا وقد قال فى ذلك أقوالا لم يُسبق إليها ، وهى خطأ . وابن الأنبارى الذى بالغ فى نصرة ذلك القول ، هو من أكثر الناس كلاما فى معانى الآى المتشابهات ، يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ؛ ويحتج لما يقوله فى القرآن بالشاذ من اللغة ، وهو قصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة . وليس هو بأعلم بمعانى القرآن والحديث ، وأتبَع للسنة من ابن قتيبة ، ولا أفقه فى ذلك ؛ وإن كان ابن الأنبارى من أحفظ الناس للغة . لكن باب فقه النصوص ؛ غير باب حفظ ألفاظ اللغة ».

وترجع عداوة ابن الأنبارى لابن قتيبة إلى أسباب ثلاثة ، تجمعها كلمة واحدة ، وهى « التعصب » .

أولها : أن ابن الأنبارى من نحاة الكوفة المتعصبين ، وابن قتيبة من البصريين ، ولكنه لم يكن متعصبا لمذهبه ، بل مزج بين المذهبين ؛ فتعصب عليه ابن الأنبارى ؛ كما تعصب على معاصره أبى الحسن بن كيسان الكوفى المتوفى سنة ٢٩٦ لأنه مزج بين النحويين ، وكان ميله إلى مذهب البصريين أكثر . قال أبو على القالى ، تلميذ ابن الأنبارى : « كان أبو بكر بن الأنبارى شديد التعصب على ابن كيسان ، والتنقص له ؛ وكان يقول : خلط فلم يضبط مذهب الكوفيين ، ولا مذهب البصريين . وكان يفضل الزجاج عليه » ؛ مع أن أبا بكر بن مجاهد يقول عنه : أبو الحسن بن كيسان أنحى من الشيخين ؛ يعنى : ثعلبا والمبرد .

والسبب الثانى : فى تنقص ابن الأنبارى لابن قتيبة : تلك الرواية التى رواها فى تأويل مشكل القرآن ، عن الشعبى : من أن عليا دخل حفرته وما حفظ القرآن . فقد أحفظته عليه ، كما أحفظت ابن فارس ، والشريف المرتضى .

والسبب الثالث : تأليف ابن قتيبة لكتاب « إصلاح الغلط » . وقد ذكر هذا السبب ابن تيمية ، فى تفسير سورة الإخلاص ص ١٢٣ ؛ حيث يقول : وقد نقم ابن الأنبارى وغيره ، على ابن قتيبة كونه رد على أبى عبيد

أشياء من تفسير غريب الحديث . وابن قتيبة قد اعتذر من ذلك ، وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم . وهو وأمثاله يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى » .

إن ابن قتيبة لم يخطئ في فكرة نقده لأبي عبيد ، كما لم يخطئ في فكرة مزجه بين النحويين ؛ فما كان أبو عبيد — على جلالة قدره وسمو مكانته — إلا إنسانا يخطئ ويصيب ، ويؤخذ من كلامه ويرد ؛ وقد أخطأ وعرف معاصروه وغيرهم خطأه ، كإسحاق الموصلي ، وأبي سعيد الضرير وأبي سليمان الخطّابي . وما خُصّ مذهب الكوفيين بالصواب في كل مسألة من مسائله . وما كان نقد ابن قتيبة لأبي عبيد ، ولا مزجه بين المذهبين — إلا مظهراً من مظاهر التحرر العقلي الذي فطر عليه ، وجعله دائماً يثني على كل من أتى بحسن من قول أو فعل ، ويرد الرديء منهما على صاحبه ، غير ناظر إلى شرفه ولا تقدمه . وقد شرح ذلك في غير موضع من كتبه ، فقال في مقدمته لكتاب «الشعراء» ص ٦ : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ؛ بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفّرت عليه حقه ؛ فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيَّره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدَثُ وحسن حتى لقد

همت بروايته . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره» . وكذلك قال فى مقدمة عيون الأخبار : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخيَّر اللفظ ، لطيف المعنى ، لم يُزْرِ به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ؛ فكل قديم حديث فى عصره ؛ ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ، ووضع الموجود ، ورفض المبذول ، وحب الممنوع ، وتعظيم المتقدم ، وغفران زلته ، وبخس المتأخر والتجنّى عليه . والعاقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » .

وأبلغ من ذلك كله — : فى الدلالة على تحرر عقله ، وانطلاقه من إسار التقليد والتزمت — : روايته لأدب المجون ، ودفاعه عن ذلك ، حيث يقول : « وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة ، وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما . فإذا مرّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه ، أو تعجب منه ، أو تضحك له — : فاعرف المذهب فيه وما أردنا به . واعلم أنك إن كنت مستغنيا بتنسكك فإن غيرك ممن يترخّص فيما تشددت فيه ، محتاج إليه . وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ لك على ظاهر محبتك . ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه ، وشطر مائه ؛ ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة — : فلا يحملك الخشوع أو التخاشع

على أن تصعِّر خدك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب ، وأكل لحـوم الناس بالغيب ... ولم أترخص لك فى إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هِجِّيراك على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منى فيه عند حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها تنقصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض . وأحببت أن نجرى فى القليـل من هذا ، على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على سجيتها ، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت ، وثلموا أديانهم وتورعت » .

وهذا كلام رائق معجب ، ينبغى أن نتلقاه بالتقدير والإجلال ، ولا سيما إذ تمثلنا أنه قيل فى القرن الثالث ، وأن قائله رجل من رجال الدين يؤلف فى التفسير والحديث ، وينصب نفسه للدفاع عنهما ضد نزعات الشك الفلسفى التى نجمت نواجمها فى ذلك العصر .

* * *

تأويل مشكل القرآن

وكان كتاب « تأويل مشكل القرآن » ثمرة طيبة من ثمار ذلك الدفاع القويم الذى أبلى فيه ابن قتيبة بلاء حسناً . فقد هاله ما رأى من كثرة الشكوك التى تثار حول القـرآن ، والمطاعن التى تسدد نحوه ؛ وخشى أن تكون عاقبة أمرها خسراً للأغمار والأحداث ؛ فانتدب نفسه لِدَرْئها ، وتبيين عِوَجِها ، ورد كيدها إلى نحور أصحابها . وقد أعانه على ذلك امتلاكه لزمام

البيان المشرق الرصين ، واقتداره على النقد العلمى المتين ؛ وشمول معارفه وزكاء مداركه ؛ وسعة عقـــله الذى تمثّل أدبين ، وتثقف ثقافتين ؛ هما العربية ، والفارسية .

يحدثنا ابن قتيبة ـ عما بعثه إلى تأليف هذا الكتاب ، وما صنعه فيه ـ فيقول ص ١٧ : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولَغَوْا فيه وهجروا ، واتبعوا ﴿ ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ﴾ ؛ بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظرمدخول ؛ فحرّفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ؛ ثم قَضَوْا عليه بالتناقض ، والاستحالة فى اللحن ، وفساد النظم ، والاختلاف . وأَدْلَوْا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمْر ؛ والحدَثَ الغِرّ ؛ واعترضت بالشبه فى القلوب ، وقدحت بالشكوك فى الصدور . . . . فأحببت أن أنضـــح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيّرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألَّفْتُ هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن ؛ مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والإيضاح ، وحاملا ما أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب ؛ لأرى المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأى ، أو أقضى عليه بتأويل ، ولم يجز لى أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير ؛ إذ كنت لم أقتصر على وحى القوم حتى كشفته ، وعلى إيمائهم حتى أوضحته ، وزدت فى الألفاظ ونقصت ، وقدّمت وأخرت ، وضربت لذلك الأمثال والأشكال حتى يستوى فى فهمه السامعون » .

وقد عرض لما صنع مرّة أخرى ـ بعد أن شرح معنى المتشابه والمشكل ـ إذ يقول فى ص ٧٤ : « وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ فى الظاهر والمعنيان مختلفان . . ومنه يقال : اشتبه علىَّ الأمر ؛ إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما . وشبّهت علىّ : إذ لبَّست الحق بالباطل . ثم يقال لكل ما غمض ودقّ : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره .

ومثل المتشابه : المشكل ؛ وسمّى مشكلا لأنه أشكل ، أى دخل فى شكل غيره ، فأشبهه وشاكله . ثم يقال لما غمض — وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة — : مشكل . وقد بينت ماغمض من معناه لالتباسه بغيره ، واستتار المعانى المختلفة تحت لفظه ؛ وتفسير المشكل الذى ادُّعِىَ على القرآن فساد النظم فيه » .

وقد ذكر ابن قتيبة فى مقدمته : أن فضل القرآن لايعرفه إلا « من كثر نظره ، واتسع علمه ؛ وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها فى الأساليب ؛ وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس فى جميع الأمم ، أمة أوتيت — : من العارضة والبيان ، واتساع المجال — ماأوتيته العرب .. » ، ثم ذكر حال العرب فى مبانى ألفاظها وإعرابها ، وألوان فروقها بين معانى الألفاظ ، وتحدث عمالها من الشعر « الذى أقامه الله لها مُقام الكتاب لغيرها ، وجعله لعلومها مستودعا ، ولآدابها حافظا ، ولأنسابها مقيداً ، ولأخبارها ديواناً لايرث على الدهر ولا يبيد على مرّ الزمان ... » ، ثم قال فى ص ١٥ : « وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها :

الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص .

وبكل هذه المذاهب نزل القرآن . ولذلك لا يقدر أحد من التراجم ، على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب . ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ، لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذى أُودعته ، حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها ، وتظهر مستورها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هُدْنَةٌ وعهد — نخفت منهم خيانة ونقضاً — فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم ، وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ إن أردت أن تنقله بلفظها لم يفهمه المنقول إليه ، فإن قلت أنمناهم سنين عدداً ، لكنت مترجماً للمعنى دون اللفظ . وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ، إن ترجمته بمثل لفظه استغلق . وإن قلت : لم يتغافلوا ، أديت المعنى بلفظ آخر » .

وأعتقد أن كلام ابن قتيبة فى مسألة ترجمة القرآن هو القول الفصل الذى يجب التمسك به ؛ وعدم العدول عنه .

* * *

بدأ ابن قتيبة كتابه بالحكاية عن الطاعنين ؛ فسرد مطاعنهم على اختلاف أنواعها ؛ ثم عقد أبواباً للرد عليهم فى وجوه القراءات ؛ وما ادعوه على القرآن من اللحن ؛ وما نحلوه من التناقض والاختلاف بين آيه ، وما قالوه فى المتشابه . كما أجاب عن قولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه فى القرآن ، من أراد لعباده الهدى والبيان ! ! .

ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز ؛ لأن أكثر غلط المتأولين كان من جهته ، وبسببه تشعبت الطرق ، واختلفت النحل .

وطريقته فى إيراد أبواب المجاز أنه يذكر ما أتى منها فى كتاب الله ، يُعقبه بأمثاله : من الشعر ولغات العرب ، وما استعمله الناس فى كلامهم .

وقد بدأ بباب الاستعارة ، ثم باب المقلوب ، وباب الحذف والاختصار ، وباب تكرار الكلام والزيادة فيه ، وباب الكناية والتعريض ، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه .

ثم ذكر باب الأبواب فى الكتاب ، وهو باب تأويل الحروف التى ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم ، فتحدث عن الحروف المقطعة، واختلاف المفسرين فيها . ثم خلص من الكلام عليها إلى الكلام على مشكل سور القرآن ؛

فيذكر ما فى السورة منه ثم يؤوله؛ ولكنه لم يرتب السور على حسب ترتيبها المعروف فى المصحف؛ بل ذكرها حسبما عَنّ له من مشاكلها. وقد لا يستوفى الكلام على مشاكل السورة التى يذكرها؛ فيعيد ذكرها مرة أو مرات: مثلما فعل فى سورة البقرة والأنعام، وسورة النحل والنساء.

فقد تحدّث عن مشكل السورتين الأوليين فى أربعة مواضع، وتحدث عن مشكل الثانيتين فى ثلاثة — كما أنه لم يعرض لكل سور القرآن. والسورةُ الوحيدة التى استوفى تأويلها، وشرحها كلها — من بين السور التى ذكرها — هى سورة الجن؛ لما فيها من إشكال وغموض؛ بما وقع فيها من تكرار «إن» واختلاف القراء فى نصبها وكسرها؛ واشتباه مافيها من قول الله وقول الجن.

وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التى ذكرها، عقد بابا عظيم القدر، بالغ الأهمية؛ وهو «باب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة»؛ تحدث فيه عن نيف وأربعين لفظاً من الألفاظ التى جاءت فى القرآن متحدة المبانى، مختلفة المعانى؛ كالقضاء والبلاء، والأمة والرؤية والإمام والإسلام، والفتنة والسلطان، والضلال والنسيان، والحساب والكتاب.

ثم ذكر ابن قتيبة بعد ذلك «باب تفسير حروف المعانى، وما شاكلها من الأفعال التى لاتتصرف»؛ كأين، وأنى، ولولا، ولوما، ولا جرم، وتعالى، وهلم، ورويداً، ولدن.

ثم ختم كتابه بباب « دخول بعض حروف الصفات مكان بعض » ومما هو جدير بالملاحظة : أن عنوان هذا الباب والذى قبله ، مظهر من مظاهر مزج ابن قتيبة بين كلام الكوفيين والبصريين ، فحروف المعانى تعبير بصرى ؛ ذكر المفضل بن سلمة الكوفى فى كتاب « البارع » الحروف التى جاءت لمعان — بعد أن ذكر أبنية الكلام — فقال : « والحـــد الثالث من الكلام الأحداث ؛ وهى التى يسميها أهل البصرة : حروف المعانى » .

وحروف الصفات تعبير كوفى ؛ قال السيوطى فى همع الهوامع ٢/١٩ « حروف الجر ، ويسميها الكوفيون حروف الإضافة ؛ لأنها تضيف الفعل إلى الاسم ، أى توصله إليه ، وحروف الصفات لأنها تحدث صفة فى الاسم ، فقولك : جلست فى الدار ، دلت « فى » على أن الدار وعاء للجلوس ، وقيل لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات » .

* * *

ولأبواب المجاز التى ذكرها ابن قتيبة فى هذا الكتاب ، قيمة تاريخية كبيرة ؛ لأنها ستضيف إلى معارفنا عن تطور البلاغة شيئاً جديدا . فالشائع الذائع بين الخاصة وغيرهم : أن البلاغة العربية طفرت من نثار الجاحظ المبثوث فى كتبه ، إلى « بديع » ابن المعتز ، طفرة واحدة . ولم يعرف أحد أن ابن قتيبة قد أسهم فى تكوينها وتطورها بنصيب موفور . فظهور تلك الأبواب فى هذا الكتاب يظهرنا على تلك الحلقة المفقودة فى تاريخ البلاغة ، ويضيف إلى أمجاد ابن قتيبة مجداً آخر عظيم الشأن ، سيذكره الذاكرون كلما تحدثوا عن تاريخ البلاغة ونشأتها .

ولن يستطيع باحث أن يغفل صنع ابن قتيبة فى استخراج ما فى القرآن من أنواع المجاز وتبويبها أبوابا مفصلة بلغت عدة صفحاتها أربعاً وخمسين ومائة؛ قبل أن يؤلف ابن المعتز كتاب « البديع » فى سنة أربع وسبعين ومائتين؛ بسنوات وسنوات .

* * *

ولباب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة ، كذلك قيمة تاريخية عظيمة ، فقد رجع ابن قتيبة المعانى المختلفة للفظ الواحد ، إلى أصل واحد نشأت منه ، وتفرعت عنه .

ومن أمثلة ذلك أنه ذكر كلمة « القضاء » ، وبين معانيها المختلفة التى تصير إليها ؛ ثم ختم بحثه بقوله ص ٣٤٣ « وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد » . وكذلك قال بعد تبيينه لمعانى « القنوت » ص ٣٥٠ « ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ؛ لأن جميع هذه الخلال من الصلاة والقيام فيها، والدعاء وغير ذلك يكون عنها » ؛ وقال بعد ذكره لمعانى كلمة « الأمر » ص ٣٩٤ « وهذا كله وإن اختلف فأصله واحد » .

وبذلك يكون لابن قتيبة فضل السبق إلى القول برد مفردات المادة اللغوية ، إلى أصولها المعنوية المشتركة ؛ لأنه أسبق من ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ ، ومن أستاذه أبى على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ ، ومن ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ . بل إنى أذهب إلى أن فكرة ابن قتيبة هذه ، هى التى أوحت إلى ابن فارس تأليف كتابه « مقاييس اللغة » ؛ كما أوحت إليه تلك

المباحث اللغوية — التى تضمنها تأويل مشكل القرآن — تأليف كتاب « الصاحبى » فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : والذى يقارن بين الكتابين ، يجد أن ابن فارس قد اعتمد على تأويل مشكل القرآن كل الاعتماد ، وانتفع بمباحثه انتفاعاً عظيما . ونقل منها إلى كتابه نقولا كثيرة : من غير أن يشير إلى ذلك ؛ وإن أشار — وقليلا ما يصنع — فإنما يشير إشارة مبهمة غامضة ؛ كقوله فى ص ١٢ : « وقال بعض علمائنا » ؛ وقوله فى ص ١٢٤ : « وقال بعضهم » . وقد أشرت إلى بعض ما نقله فى مواضعه من الكتاب .

وابن فارس حريص على أن لا يذكر اسم ابن قتيبة ، إلا إذا حاول نقده . وهو فى نقده له مغرض متحامل متعجل ؛ وقد دفعته العجلة إلى الخطأ ، وعدم التمييز بين كلام ابن قتيبة ، وبين قوله عن الفراء فى « لا جرم » ؛ فنسب قول الفراء إلى ابن قتيبة وخطأه فيه كما أشرت إلى ذلك فى تعليق على صفحة ٤١٨ .

* * *

وقد عمد أبو عبد الله : محمد بن أحمد بن مطرِّف الكنانى القرطبى (٣٨٧ — ٣٥٤)، إلى كتابى : تأويل مشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن فجمع بينهما — كما يقول — فى كتاب أسماه « القرطين » وهذا العمل ليس — من العلم ، ولا من التأليف — فى شىء ؛ ولا يدل إلا على سوء

التفكير والتدبير. بل هو مسخ للكتابين، وتقطيع لأوصالها ، وبعثرة لمضمونهما بعثرة تُضِلُّ الأفهام والأفكار ، ولا تسيغها الأذواق ولا العقول .

ولقد زعم ابن مطرف فى مقدمته أنه لم يحل الكلام فى كلا الكتابين عن جهته، ولا غير من لفظه ، ولا زاد فيه ، ولا نقص منه . ولكن فعله خالف قوله ؛ فقد نقص منهما كثيراً وزاد فيهما قليلا ؛ واتبع فيما حذف هواه الذى أضله عن سنن العلماء ، وليس أدل على ذلك من أنه حذف من تأويل مشكل القرآن صفحة ٤٢ ،٤٣، ٤٤، ٤٥ ؛ وعلل حذفه لهذه الصفحات ، بقوله ٢/١٥ : « وباقى الباب لم أكتبه ؛ لما فيه من الطعن على حمزة ؛ وكان أورع أهل زمانه ، مع خلو باقى الباب من الفائدة ! » وسيعلم كل قارئ لهذه الصفحات ما تضمنته من الفوائد العلمية والتاريخية الجليلة ، وسيحكم بأن ابن مطرف كان ينطق عن الهوى فى حكمه .

* * *

وقد اعتمدت فى نشر هذا الكتاب على ثلاث نسخ ، الأولى : نسخة دار الكتب المصرية (١٨ = تفسير) وهى بخط أبى طالب بن عبد الواحد بن عبد المحسن بن أبى الوفاء الأنصارى الدمشقى ، المعروف ببرهان الدين ، وقد كتبها فى سنة ٥٠٨ هـ ، وقد قرئت على أبى منصور الجواليقى وعدد أوراقها ١٣٤ ورقة ، وتنقص من أولها ورقة ، ومقاسها ١٥ × ١١ سم وتشتمل الصفحة منها على خمسة عشر سطراً ، وعلى هوامشها بعض تعليقات ، وهى مضبوطة بالحركات ورمزها « ج » .

والنسخة الثانية : نسخة مكتبة مراد ملّا ، كتبت سنة ٥٣٢ هـ وهى فى ١١٧ ورقة ، ومقاسها ٥ر١٩ × ٥ر٢٥ سم وعدد سطور صفحتها ٢٠ سطراً .

والنسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية (٦٦٣ تفسير) وهى مكتوبة فى سنة ٣٧٩ هـ بخط محمد بن أحمد بن يحيى ، وعدد أوراقها ٨٥ ورقة ومقاسها ١٥×٢١ سم وعدد سطور الصفحة ٢٦ سطراً . ولئن كانت هذه النسخة أقدم النسخ عهداً ، فإنها أقلهن وزناً ؛ لأن كاتبها كان يجتوى الشعر فكان إذا مر بشعر حذفه ، ولم يفلت منه إلا قليل : وهى كذلك تنقص كثيراً من النصوص . ولكثرة المحذوف منها ، واستحالة الإشارة إلى أوله وآخره فى هوامش الصفحات دون التطويل الممل — رأيت إثبات الفروق بين النسخ فى آخر الكتاب . ولعل ذلك مما يريح جمهرة القراء .

* * *

ولقد حرصت فى شرحى لهذا الكتاب على تخريج أبياته ، وربط موضوعاته بأما كنها من كتب الأدب والتفسير ، ونقلت — من الآراء — مادعت إليه ضرورة البحث ، وأومأت إلى مالم أنقل . وكان قصدى فى ذلك إما تعضيد رأى ، أو توهين قول ، أو تفصيل مجمل ، أو توضيح مبهم ، أو الإشارة إلى مصدر فكرة ، أو اتفاق خاطر . ليكون الدارس للكتاب على بينة مما ذكره ابن قتيبة من مشكل القرآن ، محيطاً بفقه المسائل التى عرض لها ، جامعاً لأطراف الآراء ووجوه المذاهب فيها .

وما أريد أن أعرض لما صنعت بتزكية أو توثيق ، تأدباً بأدب السلف الصالح ، وتأسياً بقول أبي سليمان الخطَّابي في ختام مقدمته لتفسير غريب الحديث: « فأما سائر ما تكلمنا عليه فإنا أحقاء بأن لا نزكيه ، وأن لا نؤكد الثقة به؛ وكل من عثر منه على حرف أو معنى يجب تغييره ، فنحن نناشده الله في إصلاحه ، وأداء حق النصيحة فيه . فإن الإنسان ضعيف لا يسلم من الخطإ، إلا أن يعصمه الله بتوفيقه ؛ ونحن نسأل الله ذلك ، ونرغب إليه في دركه إنه جواد وهوب » .

واقتداء بقول ابن قتيبة : « وما أبرأ إليك بعد من العثرة والزلة ، وما أستغني منك ـ إن وقفت على شيء ـ : عن التنبيه والدلالة ، ولا أستنكف من الرجوع إلى الصواب عن الغلط . فإن هذا الفن لطيف خفي ، وابن آدم إلى العجز والضعف والعجلة ، (وفوق كل ذي علم عليم) .

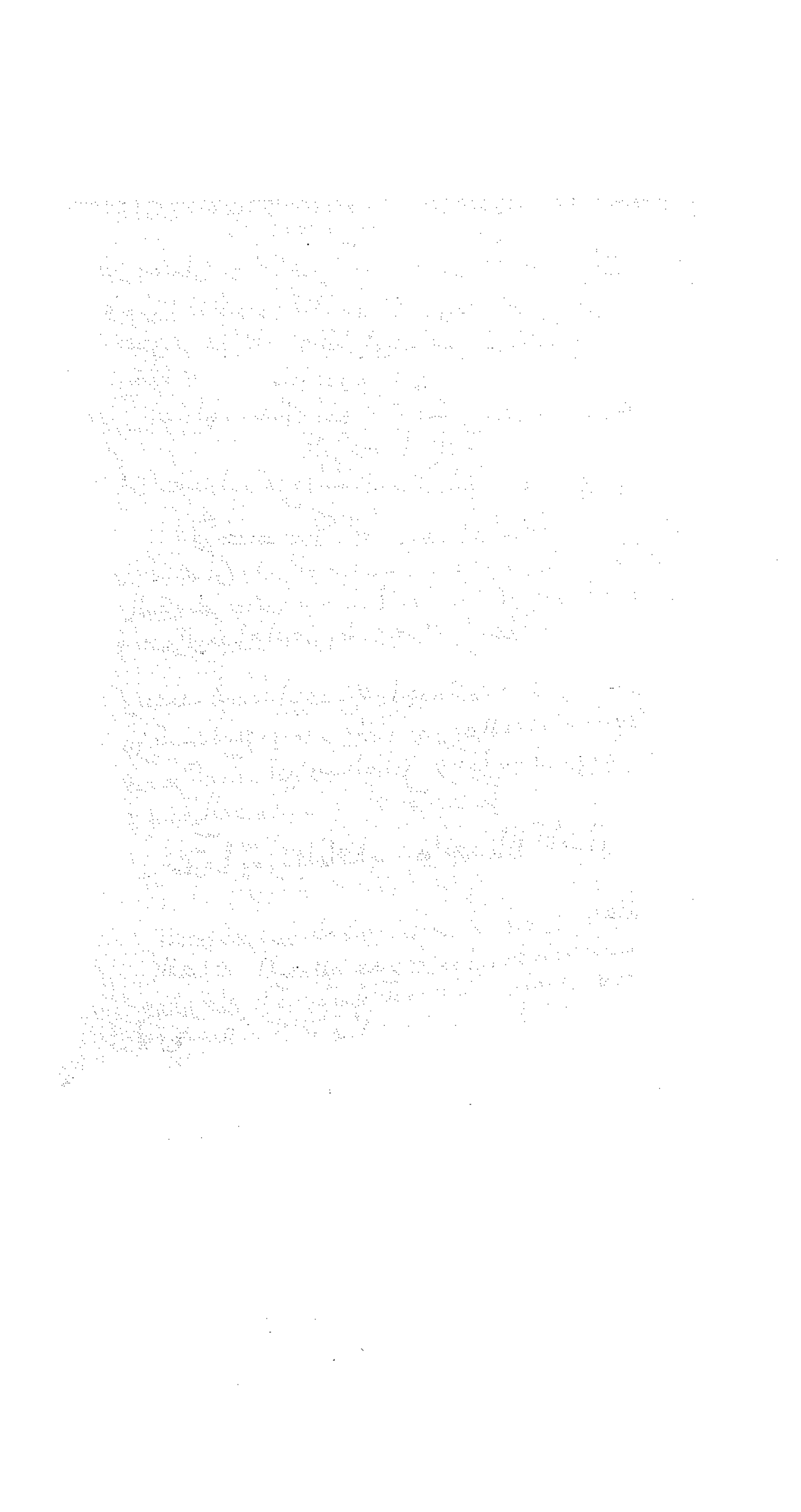
ونحن نسأل الله أن ينفعنا وإياك بالعلم ، ويعرفنا قدره ، ويجعل شغلنا بالعمل المقرب منه ، ويؤتينا بفضله أفضل ما آتاه من أمّله بخير نية ، وأرشد هُدًى إنه الواسع الكريم » .

القاهرة في يوم الإثنين : ١٧ من رمضان ١٣٩٣ هـ / ١٣ أكتوبر ١٩٧٣م — السيد أحمد صقر



صورة الصفحة الأولى من النسخة المرموز إليها بحرف « د »

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة المرموز إليها بحرف « د »





صورة الصفحة الأولى من النسخة المرموز إليها بحرف «م»



صورة الصفحة الأخيرة من النسخة المرموز إليها بحرف « م »

